

سُورَةُ الدُّخَانِ

حين ينقشعُ لَعِبُ الأرض أمام جلال الآخرة

رحلة من ليلة التتزليل إلى يوم البطشة الكبرى

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِي

سُورَةُ الدُّخَانِ

حينَ يَنْقَشُ لَعِبُ الْأَرْضِ أَمَامَ جَلالِ الْآخِرَةِ
رَحْلَةً مِنْ لَيْلَةِ التَّنْزِيلِ إِلَى يَوْمِ الْبَطْشَةِ الْكَبْرَى

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

هناك سورٌ تقرأها فتفتح لك باباً إلى معنى، وهناك سورٌ تشعر، منذ آياتها الأولى، أنها لا تفتح باباً فحسب، بل تطفئ الأنوار الكاذبة من حولك حتى ترى الحقيقة وحدها. وسورة الدخان من هذا الصنف المهيّب.

تبدأ ببليّ مبارك ينزل فيه القرآن، ثم تمضي بنا حتى نرى سماءً تأتي بدخان مبين، وأرضاً يعلو عليها فرعون، وبحراً ينشق لقوم وينطبق على قوم، ثم تنتهي أمام شجرة الزقوم، ومقام أمين، وموعد ينتظر الجميع.

إنها سورة تبدأ بالكآب وتنتهي بالانتظار.

تبدأ بالنور الذي نزل من السماء، ثم تكشف لنا ماذا يحدث حين يرفض الإنسان ذلك النور: يتحول اليقين في داخله إلى شك، والجد إلى لعب، والملك إلى استعلاء، والنعمة إلى غرور، حتى يأتي يوم لا يعود فيه اللعب ممكناً.

ولعل الكلمة التي تكشف سر السورة كله هي قوله تعالى:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

إنها ليست جملة عابرة تصف قوماً مضوا.

إنها تشرّح مرعب لحالة الإنسان حين يعرف أن وراء الحياة حقيقة، لكنه يؤجل مواجهتها. لا ينكر تماماً.

ولا يوقن تماماً.

يبقى في المسافة الرخوة بينهما.

يشك...

ثم يلعب.

كأن اللعب هنا ليس لهو الجسد وحده، بل طريقة للهروب من السؤال.

فالإنسان قد يملأ يومه بالأحداث، والأعمال، والأحاديث، والمنافسات، والخصومات، والأموال، والأخبار، والانتصارات الصغيرة؛ لا لأنه يجهل أن الموت آتٍ، بل لأنه لا يريد أن يجلس طويلاً أمام هذه الحقيقة.

إنه يعرف...

لكنه يلعب.

وسورة الدخان تأتي لتقطع هذا اللعب.
تقول له منذ البداية:
هناك كتاب.

وهناك تنزيل.

وهناك ليلة مباركة.

وهناك أمر حكيم.

وهناك رحمة.

وهناك رب السماوات والأرض.

وهناك حياة وموت.

ثم تقول:

﴿فَارْتَقِبْ﴾.

كلمة واحدة، لكنها تقلب الزمن كله.

انتظر.

ليس كل شيء سيظل كما هو.

ليست الأسواق أبدية.

ولا الممالك.

ولا الأجساد.

ولا الضجيح.

ولا الذين يملكون اليوم حق الكلام الأخير.

سيأتي يوم يصبح فيه ما كان غيباً مشهداً، وما كان خبراً واقعاً، وما كان الإنسان يسخر منه شيئاً يملأ السماء.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۖ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وهنا يبدأ وجه السورة الآخر.

ففي أولها سماءٌ ينزل منها الكتاب.

ثم نرى سماءً يأتي منها الدخان.

وكأن بين المشهدين مصير الإنسان كله:

إما أن تتلقى ما نزل من السماء هدايةً،

وإما أن تواجه ما يأتي من السماء عذاباً.

الوحي ينزل قبل العقوبة.

والرحمة تسبق البطشة.

والإنذار يسبق الحساب.

ولهذا فالسورة، على ما فيها من مشاهد العذاب والانتقام والهلاك، ليست سورة تخويف مجرد، بل سورة رحمة عميقة؛ لأن الله لم يفاجئ الإنسان بالنهاية، بل أخبره بها قبل أن تأتي. أنزل الكتاب.

وأرسل الرسول.

وأقام الحجّة.

وكرر الإنذار.

وفتح باب الرجوع.

ثم قال:

﴿فَارْتَقِبْ﴾.

فالمشكلة ليست أن الطريق مجهول.

المشكلة أن الإنسان قد يعرف الطريق، ثم يختار أن يلعب على حافته.

وهنا سنحاول أن ندخل إلى سورة الدخان لا بوصفها مجموعة من مشاهد القيامة وقصة موسى وفرعون ووصف الجنة والنار فحسب، بل بوصفها بناءً متكاملًا لإنقاذ الإنسان من حياة اللعب.

كيف تنقله من الشك إلى اليقين؟

كيف تعيد تعريف الزمن في قلبه؟

كيف تربط بين نزول القرآن وسقوط الطغاة؟

كيف تكشف أن التاريخ ليس متروكًا للقوة؟

كيف تجعل السماء جزءًا من وعي الإنسان بعد أن حبس نفسه في الأرض؟

كيف تربط بين كلمة قالها فرعون قديمًا وبين كل نفس تستعلي بما أوتيت؟

وكيف تنتهي السورة بقلب الرسول صلى الله عليه وسلم — والمؤمنين معه — إلى ذلك المقام العجيب:

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾؟

إن سورة الدخان تريد أن تعلم الإنسان أن الحياة ليست مسرحًا مفتوحًا بلا خاتمة.

وأن التاريخ ليس فوضى بلا يد تديره.

وأن الطغاة لا يكتبون الفصل الأخير.
وأن الذين يضحكون اليوم ليسوا بالضرورة هم الذين سيضحكون غداً.
وأن النجاة ليست أن تمتلك الأرض، بل أن تكون على الحق حين تتغير الأرض.
ومن هنا تبدأ الرحلة.
لا من الدخان.
بل من الكآب.
لأن الله قبل أن يريك ما يخيفك، يريك ما يهديك.

لماذا سورة الدخان؟

ليست سورة الدخان طويلة.

تسع وخمسون آية.

لكنها تحمل في داخلها علماً كاملاً.

سماً وأرضاً.

ليلاً مباركاً.

كتاباً مبيناً.

رسلاً.

طغياناً.

قوماً مستضعفين.

بحراً.

جنات وعبوداً.

مقاماً كريماً.

شجرة من زقوم.

ماء كالمهل.

ثم جنات وعبوداً أخرى، ولكن هذه المرة ليست جنات فرعون التي تركها خلفه، بل

جنات المتقين التي يدخلونها خالدين.

وهذه المقابلة وحدها تكاد تلخص السورة.

وكان لقوم فرعون:

﴿جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

لكنه تركها.

ثم في آخر السورة يقول الله عن المتقين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٢٠﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

الألفاظ تكاد تعود.

جنات.

عيون.

مقام.

لكن المصير مختلف تماماً.

هناك مقام كريم تركه أصحابه ومضوا.

وهنا مقام أمين لا يخاف أهله أن يُخرجوا منه.

وهنا تكمن واحدة من أعمق رسائل سورة الدخان:

ليست المشكلة أن تملك النعمة.

بل أن تعرف لمن تنتمي النعمة، وإلى أين ستأخذك.

فرعون امتلك أنهاراً وجنات ومقاماً كريماً، لكنه لم يمتلك الأمان.

والمثقون ربما عبروا الدنيا بلا شيء من ملك فرعون، لكنهم وصلوا إلى المقام الأمين.

كم يبدو الفرق بين الكلمتين صغيراً في اللغة:

كريم.

أمين.

لكنه هائل في المصير.

فما قيمة مقام جميل لا تستطيع البقاء فيه؟

وما قيمة مُلك لا يستطيع صاحبه أن يمنع الموت من الدخول عليه؟

وما قيمة جنة في الأرض إذا خرج منها صاحبها إلى النار؟

إن سورة الدخان تعيد تعريف الغنى والفقر، والانتصار والهزيمة، والبقاء والزوال.

ولهذا فإنها لا تعرض قصة موسى وفرعون لتقص علينا شيئاً مضى، بل لتكسر الوهم المتكرر

في كل عصر: أن من يملك الأرض يملك المصير.

فرعون كان يرى السلطة.

وموسى كان يرى الوعد.

فرعون كان يملك الجند.

وموسى يملك كلمة من الله.

فرعون كان يستطيع أن يطارد بني إسرائيل.

لكنه لم يكن يستطيع أن يمنع البحر من أن يتلقى أمر ربه.

وهكذا يعلن القرآن أن ميزان القوة الذي تراه العين ليس هو الميزان الكامل للحقيقة.

هناك قوة فوق القوة.

وتدبير فوق التدبير.

ووقت تتغير فيه المواقع كلها في لحظة.

كان البحر أمام موسى عقبه.
 ثم صار طريقاً.
 وكان البحر وراء فرعون طريقاً.
 ثم صار قبراً.
 المشهد واحد.
 والماء واحد.
 لكن الموقف من الله غير وظيفة الأشياء.
 وهذه من عجائب القرآن: أن الكون لا يقف دائماً على الحياد بين الإيمان والطغيان.
 فالأرض أرض الله.
 والبحر بحر الله.
 والسماء سماء الله.
 والليل ليل الله.
 والتاريخ تاريخ عباده تحت علمه وتقديره.
 ولهذا تبدأ السورة من فوق التاريخ:
 ﴿حَمْدٌ لِلَّهِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ .
 قبل فرعون.
 وقبل البحر.
 وقبل الدخان.
 وقبل الزقوم.
 هناك كُتِبَ مَبِين.
 وذلك لأن السورة تريد أن تعيد ترتيب الرؤية قبل أن تعرض المشاهد.
 فالإنسان لا يحتاج فقط أن يرى الأشياء.
 يحتاج إلى نور يعرف به ماذا تعني الأشياء.
 يرى موت الطاغية، لكن قد يظنه صدفة.
 يرى انهيار الحضارات، لكن قد يظنه قانوناً مادياً أصم.
 يرى النعمة، فيحسبها دليل رضا.
 ويرى الابتلاء، فيحسبه دليل خذلان.
 ويرى تأخر النصر، فيظن أن الوعد قد تغير.

لكن الكتاب المبين يأتي لينح الأحداث معناها.
وهذا هو الفرق بين من يعيش داخل العالم وحده، ومن يعيش العالم على ضوء الوحي.
الأول يرى وقائع.
والثاني يرى آيات.
الأول يرى بحراً.
والثاني يرى أمراً.
الأول يرى سقوط فرعون.
والثاني يرى سنة.
الأول يرى موتاً.
والثاني يرى انتقالاً.
الأول يرى نهايةً.
والثاني ينتظر ما بعدها.
ولذلك اخترت سورة الدخان لأنها سورة تعيد للإنسان جدية الوجود.
نحن نعيش في زمن يستطيع الإنسان فيه أن يحول كل شيء إلى مادة استهلاك.
حتى المأساة.
حتى الموت.
حتى الحرب.
تمر المشاهد على الشاشات، ثم تأتي بعدها صورة أخرى.
ويموت الناس، ثم يأتي إعلان.
وتنهار مدينة، ثم ننتقل إلى خبر رياضي.
وتحول أعظم أسئلة الوجود إلى ومضات عابرة في سيل لا ينتهي من الضجيج.
وهنا تأتي سورة الدخان بكلمتها القاسية الدقيقة:
﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.
إنها تكشف الإنسان حين يفقد القدرة على التوقف أمام الحقيقة.
فاللعب ليس الضحك فقط.
قد يكون انشغالاً دائماً.
قد يكون جدلاً.
قد يكون سباقاً سياسياً.

قد يكون تنافساً مالياً.
قد يكون غرقاً في التفاصيل حتى لا يبقى في القلب مكان للسؤال الأكبر:
إلى أين؟

وسورة الدخان تعيد هذا السؤال.

لا بصوت فلسفي بارد.

بل بمشهد.

دخان يغشى الناس.

طاغية يغرق.

نعم يُترك.

جحيم ينتظر.

جنة تستقبل.

ثم صوت النبوة في النهاية ينتظر حكم الله.

وهذا هو المعمار الذي سنحاول تتبعه في هذه الصفحات:

من الكتاب المبين إلى اليقين.

ومن اليقين إلى رؤية الربوبية.

ومن الربوبية إلى انكشاف اللعب.

ومن اللعب إلى الدخان.

ومن الدخان إلى التاريخ.

ومن التاريخ إلى فرعون.

ومن فرعون إلى البحر.

ومن البحر إلى سؤال البقاء والزوال.

ومن الدنيا إلى يوم الفصل.

ومن الزقوم إلى المقام الأمين.

ثم من ذلك كله إلى الكلمة الأخيرة:

فارتقب.

كأن السورة تريد أن تنزع من القلب استعجاله.

فالله يعمل في التاريخ بقدر.

والحق لا يحتاج أن ينتصر في اللحظة التي نريدها حتى يكون حقاً.

والباطل لا يصبح حقاً لأنه بقي طويلاً.
وفرعون لم يكن أقل طغياناً قبل غرقه بلحظة، لكنه كان أقرب إلى النهاية مما يتصور.
وهذه إحدى هدايات سورة الدخان الكبرى:
لا تقرأ قوة الباطل من ضجيجه، بل اقرأها من موقعها أمام وعد الله.

من ليلة البركة إلى يوم الدخان

تقوم سورة الدخان على مفارقة كبرى بين ليلتين من الوعي إن صح التعبير:

لحظة ينزل فيها الوحي رحمةً وإنذاراً.

ولحظة يأتي فيها العذاب بعد أن لم يعد الإنذار نافعاً كما كان.

في البداية:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

وفي قلب السورة:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

إنها السماء نفسها التي يتجه إليها حس الإنسان.

لكن القادم منها مختلف.

مرة ينزل البيان.

ومرة يأتي الدخان.

مرة تفتح الرحمة للإنسان طريقاً قبل وقوع العذاب.

ومرة يأتي ما كان يُنذر به.

ولعل هذه المقابلة تعلمنا قاعدة هائلة في فهم الوحي:

القرآن ليس مجرد خبر عن الآخرة؛ إنه فرصة قبل الآخرة.

حين تسمع عن النار، فأنت لم تدخلها.

وحين تسمع عن الحساب، فالحساب لم يبدأ.

وحين يخبرك الله عن مصير فرعون، فأنت ما زلت في زمن تستطيع فيه أن تختار ألا تكون

فرعوناً صغيراً في بيتك، أو عملك، أو سلطتك، أو فكرك.

وهذا معنى الرحمة الكامن في الإنذار.

فالإنذار ليس قسوة.

القسوة أن يأتي الخطر دون أن يخبرك أحد.

أما أن يخبرك الله بما أمامك، ويرسل إليك الرسول، وينزل الكتاب، ويفصل الآيات،

ويعرض أمامك مصائر السابقين، ثم يفتح لك باب التوبة حتى آخر العمر؛ فهذه رحمة تحيط

بالإنسان من حيث قد يظن أن الخطاب شديد.

ولهذا يقول بعد ذكر إرسال الأمر:

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

رحمة.

كلمة ينبغي ألا تمر سريعاً.

الوحي رحمة.

والإنذار رحمة.

وذكر النار رحمة.

وقصة الغرق رحمة.

والحديث عن الزقوم رحمة.

لأن كل ذلك يأتيك قبل أن تصل.

والإنسان العاقل لا يقدر رحمة الخطاب بنعمه ألفاظه، بل بما ينقذه منه.

قد يكون التحذير من الحريق أشد من حديث عن الورد، لكنه أكثر رحمة بمن يقف داخل

بيت يحترق.

والدنيا في سورة الدخان ليست بيتاً مستقراً.

إنها مساحة امتحان.

نعيمها ينتقل.

ملكها يزول.

أجسادها تموت.

طغاتها يسقطون.

والذي يبقى هو موقف الإنسان من الله.

ولهذا تجمع السورة بين فرعون ومشركي مكة وأصحاب تبع والمتقين وأهل الجحيم؛ لأن الأزمنة

تتغير، لكن السؤال واحد:

ماذا فعلتم بخبر الله حين جاءكم؟

وهكذا تصبح سورة الدخان سورةً عن التلقي بقدر ما هي سورة عن القيامة.

الكتاب مبين.

لكن الإنسان قد يبقى في شك.

والرسول مبين.

لكنهم يقولون:

﴿معلم مجنون﴾.

والآيات واضحة.
 لكن اللعب يستطيع أن يصنع حول القلب غشاءً كثيفاً.
 ولذلك فالمأساة في السورة ليست غياب البيان.
 بل رفض البيان.
 ليست أن الله لم يتكلم.
 بل أن الإنسان لم يصغ.
 ليست أن الطريق كان مجهولاً.
 بل أن الإنسان أحب اللعب أكثر من الوصول.
 ومن هنا يصبح الدخان نتيجةً معنوية قبل أن يكون مشهداً من مشاهد العذاب.
 فالإنسان الذي يرفض نور الكتاب يعيش في داخله نوعاً آخر من الدخان:
 تضطرب الرؤية.
 تختلط الغايات.
 يتحول المؤقت إلى دائم في حسه.
 والدائم إلى شيء بعيد.
 يعظم ما سيزول.
 ويستهن بما سيبقى.
 يرتجف على مال قد يفارقه غداً، ولا يرتجف من يوم يقف فيه بين يدي الله.
 يتابع أخبار الدنيا لحظة بلحظة، ثم تمر عليه أخبار الآخرة وكأنها أخبار قوم آخرين.
 وهذه هي الغشاوة التي يعالجها القرآن.
 ليس القرآن فقط ليعطيك معلومات صحيحة.
 بل ليعيد نسب الأشياء في قلبك.
 يجعل الكبير كبيراً.
 والصغير صغيراً.
 والباقي باقياً.
 والزائل زائلاً.
 والله أعظم في قلبك من كل ما سواه.
 والآخرة أقرب في وعيك من الوهم الذي صنعت لك الغفلة.
 وحين يحدث ذلك، يبدأ الإنسان في الخروج من اللعب.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

حين يبدأ إنقاذ الإنسان من وضوح الوحي
قال الله تعالى:

﴿حَمْدٌ لِلَّهِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

تبدأ سورة الدخان بـ:

﴿حَمْدٌ﴾ .

حرفان.

ثم قسم:

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

ومنذ اللحظة الأولى تشعر أن السورة تريد أن تضبط بوصلة الوعي قبل أن تدخل في تفاصيل العالم.

فالذي سيقراً قصة فرعون يحتاج أولاً إلى ميزان يعرف به من المنتصر.

والذي سيقراً عن الدخان يحتاج أولاً إلى مصدر يخبره بما وراء الحس.

والذي سيقراً عن شجرة الزقوم يحتاج أن يكون قد حسم سؤالاً أسبق:

من الذي يخبرني؟

ولهذا يأتي:

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

إنه كتاب.

وليس ظناً.

ومبين.

وليس متاهة.

والوضوح هنا ليس معناه أن كل إنسان سيدرك كل أسواره بمجرد القراءة، وإنما أن هذا

الكتاب جاء بوظيفة البيان والهداية والكشف، وأن المشكلة حين يعمى الإنسان عنه ليست

لأن الله جعل الطريق عبثاً، بل لأن في المتلقي حجاباً قد يمنعه من الانتفاع بالنور.

فالضوء قد يكون حاضراً.

لكن العين مغمضة.
وهذه المفارقة ستظهر سريعاً في السورة.
الكتاب مبين.

لكنهم:
﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.
تأمل المسافة بين الكلمتين.
مبين.

شك.
البيان من جهة المصدر.
والشك من جهة المتلقي.
كأن السورة منذ أولها تقول لنا: ليست كل حيرة دليلاً على غموض الحقيقة؛ فقد تكون
الحقيقة واضحة، لكن القلب لا يريد ثمن الوضوح.
والوضوح له ثمن.

إذا عرفت أن الله ربك، لم تعد حراً أن تعيش كأنك بلا رب.
وإذا عرفت أن الآخرة حق، لم يعد من السهل أن تجعل الدنيا غايتك القصوى.
وإذا عرفت أن القرآن من عند الله، لم يعد مجرد نص تختار منه ما يريحك وتؤجل ما
يرزعجك.

لهذا قد يهرب الإنسان من الوضوح إلى الشك؛ لأن الشك أحياناً يمنحه مهلة نفسية
للاستمرار فيما يريد.
يقول لنفسه:

لعل الأمر ليس كذلك.

لعل الحساب بعيد.

لعل الموت يتأخر.

لعل الوعيد رمز.

لعلني أتوب لاحقاً.

لعل...

ويصنع من «لعل» ستارة يؤخر خلفها القرار.
لكن القرآن يسمى نفسه:

الكتاب المبين.

كأن الوحي يقطع على النفس حيلتها:

لقد جاءك البيان.

فماذا ستفعل به؟

ثم يقول:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾.

هنا يدخل الليل إلى المشهد.

لكن ليس بوصفه ظلاماً.

بل بوصفه وعاءاً للبركة.

وهذا من جمال القرآن: قد يجعل الليل الذي يراه الناس رمزاً للغموض موطناً لأعظم بيان.

في الخارج ظلمة.

لكن من السماء ينزل النور.

والكون ساكن.

لكن التاريخ الروحي للبشرية يدخل لحظة جديدة.

ولعل في ذلك معنى يلامس كل قلب يمر بليل من لياليه:

ليست كل ظلمة علامة غياب.

أحياناً ينزل أعظم النور في أشد ساعات الليل سكوناً.

وقد تمر على الإنسان لحظة يظن فيها أن حياته أغلقت أبوابها، وأن الدنيا أظلمت، ولا يعلم

أن الله قد يفتح له في تلك الظلمة باباً من الهداية لم يكن يراه في النهار.

لكن السورة لا تريد أن تحول الليل إلى رمز نفسي حر، بل تبقينا أولاً أمام الحقيقة التي

تقررها:

أن الله أنزل هذا القرآن في ليلة مباركة.

ثم نخبرنا لماذا:

﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

فالقرآن لم ينزل ليكون زينة لغوية في حياة الإنسان.

ولم ينزل لتزين به المجالس.

ولا ليصبح صوتاً جميلاً في الخلفية بينما يسير الإنسان في الاتجاه المضاد لمعناه.

إنه إنذار.

والإنذار يعني أن هناك شيئاً أمامك.

شيئاً حقيقياً.

شيئاً يستحق أن تغيّر مسارك من أجله.

المنذر لا يقول للمسافر: الطريق جميل.

بل يقول له: انتبه.

هناك هاوية.

وهنا يعيد القرآن تعريف العلاقة بين الجمال والحقيقة.

قد يكون القرآن في غاية الجمال، لكن جماله ليس لإلهائك عن رسالته.

إنك قد تبكي من تلاوة آية، لكن السؤال بعد الدمع هو:

ماذا فعلت الآية بك؟

قد تهتز لصوت قارئ عند قوله:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

لكن الغاية ليست أن تقول: ما أجمل التلاوة.

الغاية أن تسأل:

هل أنا مستعد لذلك اليوم؟

وهذا هو الفرق بين من يستمتع بالوحي ومن يهتدي به.

الأول يمر بالجمال.

والثاني يسمح للجمال أن يقوده إلى الحق.

ثم يقول سبحانه:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۖ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾.

وهنا يدخل معنى القدر إلى قلب السورة.

الأمر ليس سائبة.

والتاريخ ليس سَكَّةَ فوضى.

والوجود ليس ماكينة تعمل وحدها.

هناك أمر.

وهناك حكمة.

وهناك تدبير.

وهذا المعنى سيكون ضرورياً حين نصل إلى موسى وفرعون.

فلو قرأت قصة فرعون بعيداً عن:

﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾

قد تظن أنك أمام صراع قوتين، غلبت إحداهما الأخرى في لحظة تاريخية.

لكن السورة تؤسسك قبل القصة:

هناك أمر من عند الله.

ولهذا يستطيع عبد مطارّد أن يقف عند البحر وقلبه ممتلئ بيقين لا يراه جيش فرعون.

الجيش يرى الحسابات.

وموسى يرى الرب.

الجيش يرى البحر.

وموسى يرى الوعد.

والفرق بين الرؤيتين هو الفرق بين إنسان يعيش داخل الأسباب وحدها، وإنسان يعرف أن

الأسباب نفسها واقفة تحت أمر الله.

ثم تأتي الكلمة التي تفتح القلب كله:

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

كان يمكن أن يقال:

أمرًا.

أو إنذارًا.

أو إرسالًا.

لكن الله وصف ذلك بأنه:

رحمة.

وما أجمل أن توضع الرحمة في أول سورة ستتكلّم بعد قليل عن الدخان والبطشة والزقوم.

حتى لا يخطئ الإنسان فهم ربه.

فليس الذي يحذرك من النار عدوّاً لك.

وليس الذي يكشف لك مصير الطغاة يريد أن يملأ حياتك رعباً.

إنه يريد أن تنجو.

والله غني عنك.

لا تزيد طاعتك في ملكه شيئاً.

ولا ينقص عصيانك من سلطانه شيئاً.

لكن رحمته اقتضت أن يرسل.
وأن ينزل.
وأن ينذر.
وأن يبين.
وأن يحكي لك ما جرى لمن قبلك.
وأن يكشف لك ما سيأتي بعد موتك.
كل ذلك وأنت ما زلت تستطيع أن تغير الاتجاه.
فما أعجب الإنسان:
يخاف ممن ينبهه إلى الخطر،
ولا يخاف من الخطر نفسه.
يضيق بالآية التي تتحدث عن النار،
ثم لا يضيق بالذنب الذي يقوده إليها.
يتنى لو أن الخطاب أقل شدة،
ولا يسأل نفسه لماذا لا يكون قلبه أكثر استجابة.
لكن سورة الدخان تعيد الميزان:
الإنذار رحمة.
لأن وراء فرصة.
أما العذاب حين يقع، فذلك زمن آخر.
ولهذا ستقول السورة عندما يأتي الدخان ويقول الناس:
﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾
تأتي الإجابة التي تكشف مأساة التأخر:
﴿أَنَّى لَهُمُ الدِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾.
لقد كانت هناك لحظة للدكرى.
لحظة كان الرسول يأتي فيها بالكلمة قبل أن يأتي العذاب.
وكان الكتاب مبيناً قبل أن يصبح الدخان مبيناً.
تأمل:
كتاب مبين.
ثم:

رسول مبین.

ثم:

دخان مبین.

ثلاثة أشياء يوصف كل منها بالبيان.

لكن الإنسان يستطيع أن يرفض البيان الأول والثاني حتى يصل إلى البيان الثالث.

وهذه من أَرْهَب الحركات في السورة.

أنك إن لم تر الحقيقة في الوحي، فقد يأتي يوم تراها في العاقبة.

إن لم يبصرك الكتاب، قد تبصرك الضربة.

إن لم توقظك الرحمة، قد يوقظك الألم.

لكن الفارق أن اليقين بعد انكشاف بعض العذاب ليس كاليقين في زمن الاختيار.

ولهذا فالسورة منذ أولها تستحث الإنسان ألا ينتظر الحقيقة حتى تأتیه في صورتها التي لا

يستطيع الهروب منها.

اقرأها الآن وهي كتاب.

قبل أن تراها غداً واقعاً.

صدق الخبر قبل أن يصبح مشاهدة.

واسجد للحقيقة وهي تدعوك.

قبل أن يخني الجسد أمام ما لا يستطيع رده.

وهكذا تضع الآيات الأولى أول لبنة في معمار سورة الدخان:

أن إنقاذ الإنسان يبدأ من تلقي الوحي بوصفه رحمةً وبياناً وإنذاراً من رب يسمع ويعلم، لا

بوصفه نصّاً جميلاً يمكن أن يمر به الإنسان ثم يعود إلى لعبه كما كان.

فالكتاب مبین.

والرحمة نازلة.

والأمر حكيم.

والرسول مرسل.

لكن السؤال الذي ستفتحه الآيات التالية هو السؤال الأصعب:

إذا كان كل هذا قد جاء... فلماذا يبقى الإنسان في الشك؟

وهناك، عند قوله تعالى:

﴿بل هم في شك يلعبون﴾

سنبدأ الدخول إلى المرض الذي جاءت سورة الدخان لتعالجه من جذره.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

حين يتحول الشك إلى طريقة للحياة

قال الله تعالى:

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ ﴿١٠﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

بعد أن قالت السورة:

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لم تترك كلمة ربك معلقة في فضاء التجريد.

فمن هو ربك؟

تأتي الإجابة واسعة حتى لا يبقى في الوجود شيء خارجها:

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

إنها عبارة تهدم في النفس وهم المساحات المستقلة.

فالسما له.

والأرض له.

وما بينهما له.

المرئي له.

والذي لا تراه له.

الأماكن التي بلغت عينك له.

والعوالم التي لم يبلغها خيالك له.

وذلك يعني أنك أنت أيضاً لست خارج هذه الربوبية.

جسدك الذي تتحمله.

والهواء الذي تتنفسه.

والأرض التي تمشي عليها.

والسما التي تظلك.

والزمن الذي يتناقص من عمرك.

كل ذلك داخل ملك الله وتديره.

وكان السورة، قبل أن تكشف مرض الشك واللعب، توسع المشهد حتى يشعر الإنسان بحقيقة موضعه.

أنت لا تلعب في أرض بلا مالك.

ولا تمضي في زمن بلا مدير.

ولا تتنفس في كون متروك لنفسه.

إنك تتحرك كل لحظة داخل ملك الله.

وهذا وحده كاف لأن يجعل الوجود أكثر جدية مما يتصور الغافل.

فالإنسان يستطيع أن ينسى مالك البيت وهو جالس فيه.

لكنه لا يغير بذلك حقيقة الملك.

ويستطيع أن يعيدش في ملك الله كأن الأشياء له.

لكن نسيانه لا يحوله إلى مالك.

كل ما يحدث أن الوهم يكبر في داخله، حتى تأتي لحظة تسترد فيها الحقيقة سلطانها على وعيه.

الموت يفعل ذلك.

العجز يفعله.

فقدان النعمة يفعله.

وآيات الله تفعل ذلك لمن كان قلبه حياً قبل أن تضطره الصدمة.

ثم يقول سبحانه:

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.

وهنا تدخل كلمة اليقين لأول مرة بقوتها.

فالسورة ليست بصدد أن تمنح الإنسان معلومات إضافية عن السماوات والأرض.

إنها تريد أن تسأله:

ماذا صنعت هذه المعرفة بقلبك؟

أيمكن أن تعرف أن لله السماوات والأرض، ثم تنصرف كأنك سيد نفسك؟

أيمكن أن تقول: الله رب العالمين، ثم تمنح هواك حق التشريع عليك؟

أيمكن أن تقرأ آيات الملك، ثم يرتجف قلبك أمام مخلوق أكثر مما يرتجف أمام الخالق؟

إن الفرق بين المعرفة واليقين ليس فرقاً في كمية المعلومات فقط.

قد يعرف الإنسان شيئاً، لكنه لا يعيش تحت سلطانه.

وقد يقر بحقيقة، لكنها لا تدخل إلى منطقة القرار فيه.
يعرف أن الموت آت.
لكنه يؤجل التوبة كأن الموت وقع عقداً معه على موعد بعيد.
يعرف أن الرزق من الله.
لكن قلبه ينهار إذا أغلق بشر في وجهه باباً.
يعرف أن الله يراه.
ثم يستحي من عين الإنسان أكثر مما يستحي من علم الله به.
يعرف أن الآخرة خير وأبقى.
ثم يجعل معظم خوفه وفرحه وحزنه من أجل ما ستركه فيها.
هذه معرفة لم تتحول بعد إلى يقين عامل.
واليقين في القرآن ليس فكرة باردة.
إنه قوة تعيد ترتيب الإنسان.
حين يستقر أن الله رب السماوات والأرض، تصغر أشياء كثيرة كانت كبيرة.
وحين يستقر أن الله يحيي ويميت، يسقط عن المخلوقين شيء من سلطانهم الوهمي على القلب.
وحين يستقر أن المصير إليه، لا يعود رضا الناس المحكمة الأخيرة.
ولهذا قال بعدها:
﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.
لم يقل فقط: خلق السماوات والأرض.
بل انتقل من أفق الكون إلى أكثر نقطة حساسة في وعي الإنسان:
الحياة والموت.
أنت حي الآن.
لكن هذه الحياة ليست ملكاً ذاتياً لك.
لم تستدعها حين بدأت.
ولا تستطيع إبقاها حين يؤذن لها أن تنتهي.
أعطيت الحياة.
وسأأتي يوم تُسترد فيه منك.
وبين العطية والاسترداد سميت هذه المسافة:

العمر.

وما العمر إلا فرصة قصيرة بين:

يحيي

و

يميت.

وكل غرور الإنسان يحدث في هذه المسافة الضيقة.

يتعامل مع جسده كأنه دائم.

ومع شبابه كأنه أصل.

ومع قوته كأنها ذاتية.

ومع حياته كأنها ملك.

ثم تكفي لحظة واحدة ليكتشف أن ما سماه «حياتي» كان منذ البداية عارية في يده.

ولعل أعظم ما يصنعه الإيمان بالموت ليس أن يجعل الإنسان حزيناً.

بل أن يجعله صادقاً.

الموت يفضح الزوائد.

أمام الموت تعرف أن كثيراً مما قاتل الناس من أجله لم يكن يستحق.

وكثيراً مما تنافسوا عليه لم يكن يبقى.

وكثيراً ممن خافوا منهم رحلوا كما سيرحلون.

وكثيراً من الصور التي صنعها الإنسان لنفسه تذوب بمجرد أن يسكن الجسد.

يبقى السؤال:

ماذا حمل القلب معه؟

ماذا فعل العبد بما عرف؟

وأين كان من ربه؟

ولهذا لا تذكر السورة الحياة والموت بوصفهما ظاهرتين طبيعيتين.

بل تقول:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

ترد الفعل إلى فاعله.

حتى لا يصبح الموت في وعيك حادثة بيولوجية بلا معنى.

وحتى لا تصبح الحياة صدفة طويلة.

هناك من أحيي.
وهناك من يميت.
وإذا كان الذي أعطاك الحياة هو الذي يأخذها، فإن ما بينهما لا يمكن أن يكون عبثاً.
ثم تأتي جملة تبدو مألوفة، لكنها في السياق شديدة الأثر:
﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.
إنها ضربة هادئة لأحد أقدم أوهام الإنسان:
وهم الموروث.
فالمشركون لم يكونوا يتحركون في فراغ.
كان وراءهم آباء.
وتقاليد.
وأعراف.
وصور مورثة عن الآلهة والعبادة والحياة.
والإنسان حين يضعف أمام الحقيقة قد يحتمي بالتاريخ.
يقول:
وجدنا الناس هكذا.
هكذا عاش آباؤنا.
هذا ما عرفناه.
وهذا ما ورثناه.
لكن القرآن يرفع السؤال فوق الأب والابن جميعاً:
﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.
فالآباء ليسوا نهاية السلسلة.
قبلهم رب.
وما دام ربك هو رب آبائك، فليس الماضي حجة على الله.
ولا طول الاعتقاد بمنح الباطل حقاً.
ولا كثرة من ساروا في طريق تجعل الطريق مستقيماً.
من أعظم لحظات التحرر في حياة الإنسان أن يفهم أن ميراثه نفسه يُعرض على الوحي.
نحترم الآباء.
لكننا لا نعبد التاريخ.

نحفظ الفضل.

لكننا لا نعطي السابقين حق أن يصيروا حجاباً بيننا وبين أمر الله.

فربنا وربهم واحد.

والحق لم يبدأ بنا.

ولم يصبح حقاً لأننا اخترناه.

إنه حق لأن الله هو الحق، ولأن الميزان إليه.

ثم بعد كل هذا البيان:

رب السماوات والأرض.

لا إله إلا هو.

يحیی ويمیت.

ربكم ورب آبائكم.

نتوقع أن تقول الآية:

فهم موقنون.

أو:

فآمنوا.

لكنها تفاجئنا بالجملة التي تكشف مأساة الإنسان:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

هنا ينكسر إيقاع البرهان على صخرة النفس.

المشكلة ليست نقص الأدلة.

بل ماذا يفعل الإنسان بالأدلة؟

الكون حوله يشهد.

والموت أمامه يشهد.

والوحي بين يديه يشهد.

وتاريخ آباءه أمامه يشهد.

ومع ذلك:

في شك.

لكن الأخطر من الشك هو ما بعده:

يلعبون.

لم تقل الآية:

في شك يبحثون.

ولا:

في شك يسألون.

ولا:

في شك يتفكرون.

بل:

﴿فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

وكان هناك شكاً قد يكون بداية طريق؛ حين يقلق الإنسان ويبحث، ويسأل، ويتجرد،

ويقول: دلوني على الحق.

وهناك شك آخر يتحول إلى مأوى.

يعيش الإنسان داخله لأنه لا يريد أن يصل.

فالذي يبحث بصدق يقلقه الشك.

أما الذي يلعب، فقد جعل الشك نفسه مساحة آمنة من التكليف.

لا يريد يقيناً؛ لأن اليقين سيطلبه بشيء.

ومن هنا نفهم أن بعض الأسئلة لا يكون غرضها العثور على جواب.

بل تأجيل الجواب.

يسأل الإنسان سؤالاً.

فإذا أجيب انتقل إلى آخر.

فإذا أجيب جاء بـثالث.

لا لأن قلبه يتحرك نحو الحقيقة، بل لأنه يريد أن يبقى في الطريق دون أن يصل.

إن الوصول مخيف للنفس التي أحبت سيادتها.

لأنك إذا وصلت إلى أن هذا كلام الله، انتهت منطقة المساومة.

وإذا وصلت إلى أن الموت رجوع إليه، تغيرت أولوياتك.

وإذا وصلت إلى أن الجنة والنار حق، لم تعد كل لذاتك متساوية.

ولهذا يكون الشك أحياناً ستاراً للهوى.

لا شك العقل الذي يطلب برهاناً.

بل شك النفس التي تخاف من مقتضى البرهان.

وما أدق قوله:

﴿فِي شَكِّ﴾.

لم يقل: عندهم شك.

كأن الشك أصبح ظرفاً يعيشون داخله.

يحيط بهم.

يرون الأشياء من خلاله.

يسمعون الرسول من داخله.

وينظرون إلى الوحي من داخله.

حتى إذا جاءت الآية لم تدخل على قلب صافٍ يريدّها، بل دخلت على عالم داخلي سبق أن قرر ألا يستسلم.

ثم:

﴿يَلْعَبُونَ﴾.

واللعب من أخطر الكلمات حين يوضع بجوار المصير.

طفل يلعب؛ لأن أمامه من يحمل عنه أعباء الوجود.

لكن ما بال إنسان يمشي نحو قبره كل يوم ثم يعيش كأن المسألة لعبة؟

ما بال من تناقص أنفاسه وهو يتصرف كأن الزمن يزداد؟

ما بال من سيقف بين يدي الله يجعل أكبر قضاياه ما يقال عنه في مجلس، أو ما يزيد في

حسابه، أو من انتصر في خصومة صغيرة؟

ليست الآية دعوة إلى أن يتحول الإنسان إلى كائن كئيب لا يبتسم ولا يستريح.

فالقرآن لا يحرم المباح ولا يلغي بهجة الحياة.

المقصود أعمق.

أن تتحول الحياة نفسها إلى لعب.

أن تصبح غايتها لا تتجاوزها.

أن يأكل الإنسان ليأكل.

ويجمع ليجمع.

ويتنافس ليتنافس.

ويشتهي ليشتهي.

ويمضي من لذة إلى أخرى حتى يصل إلى الموت دون أن يسأل لماذا مُنح الحياة أصلاً.

هذا هو اللعب الخفيف.

أن تكون شديد الجدية في أشياء صغيرة، وشديد العبث في السؤال الأكبر.

كم من إنسان يرتب مستقبله المالي لعشرين سنة، ولا يرتب لموت قد يأتي الليلة.

كم من إنسان يدرس احتمال الخسارة في تجارته، ولا يسمح لنفسه أن يدرس احتمال أن يلقي الله بقلب لم يتب.

كم من إنسان يحفظ مواعيد الناس، وينسى الموعد الذي لا يعرف متى يأتي.

وقد يكون اللعب أحياناً في صورة انشغال جاد.

وهذه من أخفى صوره.

ليس كل لاعب يضحك.

هناك من يلعب وهو غاضب.

يلعب في معركة المكانة.

يلعب في صراع النفوذ.

يلعب في صناعة صورة لنفسه.

يلعب في جمع ما لن يستطيع حمله إلى قبره.

ومن حوله يظنون أنه رجل شديد الجدية.

لكن السؤال القرآني ليس:

كم كنت مشغولاً؟

بل:

بماذا كنت مشغولاً؟

فالإنسان يستطيع أن يستهلك عمره كله دون أن يعيش لحقيقة واحدة.

وهنا تعيد سورة الدخان ترتيب معنى الزمن.

كل دقيقة تمضي ليست مجرد وقت مضى.

إنها جزء من الأجل لن يعود.

وحين يعرف الإنسان هذا، يصبح العمر أثمن من أن يستهلكه في شك يلعب داخله.

إن اليقين لا يعني أنك تعرف موعد موتك.

بل يعني أنك تعرف بما يكفي كيف تعيش قبل أن يأتي.

الشك الذي لا يريد الشفاء

من المهم أن نفرق بين سؤالين.

سؤال يولد من تواضع الباحث.
وسؤال يولد من كبرياء الهارب.
الأول يقول:
لا أفهم، فعلمني.
والثاني يقول في داخله:
لن أقبل حتى لو فهمت.
الأول يمشي بالسؤال نحو اليقين.
والثاني يدور بالسؤال حول هواه.
والقرآن لا يخاف من السؤال الصادق.
كم من موضع دعا فيه إلى النظر والتفكير والتدبر.
لكنه يفضح القلب حين يتخذ التفكير ذريعةً حتى لا يخضع.
لأن وظيفة العقل أن يقودك إلى الحق حين يظهر.
لا أن يتحول إلى مصنع دائم للأعداء.
وقد يصل الإنسان إلى حالة غريبة:
لا يريد إنكار الله صراحة.
ولا يريد عبادة الله حقاً.
فيترك نفسه في المنطقة الوسطى.
يكفيه من الدين ما يطمئنه.
ولا يأخذ منه ما يغيّره.
يريد آية تخفف خوفه.
ولا يريد آية تكسر هواه.
يريد رباً يغفر.
لكن لا يريد رباً يأمر وينهى.
يريد الجنة.
لكن دون أن يعيد النظر في الطريق الذي يمشي فيه.
وهذا من اللعب بالدين نفسه.
أن يتحول الوحي من سلطان على القلب إلى أداة يستعملها القلب لتهدئة نفسه.
أما سورة الدخان فلا تسمح بهذه المنطقة المريحة.

تأخذك من:

الكتاب المبين

إلى:

الدخان المبين.

كأنها تقول:

سيأتي البيان على كل حال.

إما أن تقبل البيان وهو كلمة تهديك.

أو أن تواجه البيان حين يصير واقعاً يغشاك.

ولهذا جاءت الآية التالية مباشرة:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

كأن حرف الفاء يطوي زمناً كاملاً.

أنتم في شك تلعبون؟

إذن:

فارتقب.

﴿فَارْتَقِبْ﴾

حين يتوقف اللعب ويأتي الموعد

قال الله تعالى:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا
اَكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ
تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْنُونَ ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ
الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴿

ما أقصر المسافة في السورة بين:

﴿يَلْعَبُونَ﴾

و:

﴿فَارْتَقِبْ﴾

كأن القرآن لا يمنح اللعب مساحة طويلة في الصفحة.

والحياة كذلك.

قد تبدو طويلة لمن هو في أولها.

لكن حين ينظر الإنسان خلفه يكتشف أن العقود نفسها مرت كأنها أيام.
طفولة.

ثم شباب.

ثم سنوات تتسارع.

ثم يبدأ الأصدقاء يتساقطون حوله.

وتصبح أسماء كانت تملأ الحياة صوراً في الذاكرة.

ويكتشف أن الزمن لم يكن يمشي.

كان يأخذ منه شيئاً في كل خطوة.

وسورة الدخان تختصر هذه الحقيقة بكلمة:

فارتقب.

انتظر.

فالزمن ليس مفتوحاً.

والتاريخ لا يدور إلى غير نهاية.

ولعبك نفسه له موعد يتوقف عنده.
إن الإنسان يستطيع أن يؤجل التوبة.
لكنه لا يستطيع أن يؤجل الموت إذا جاء.
يستطيع أن يغلق المصحف.
لكنه لا يستطيع أن يغلق الآخرة.
يستطيع أن يرفض الإنذار.
لكنه لا يستطيع أن يلغي ما أنذر به.
وهنا الفرق بين الحقيقة ورغبات الإنسان.
يمكنك أن تتجاهل الحقيقة.
لكن تجاهلك لا يغيرها.
مثل رجل يغلق عينيه أمام قطار مقبل.
الظلام الذي صنعه في عينيه لا يوقف الحديد.
ولهذا قال:
﴿فَارْتَقِبْ﴾.
إنها ليست كلمة تهديد مجرد.
إنها كلمة يقين.
النبي صلى الله عليه وسلم لا يحتاج أن يصنع النهاية.
ولا أن يستعجلها.
ولا أن يحمل هم توقيتها.
عليه أن يبلغ.
ثم ينتظر.
لأن الذي أنزل الكتاب هو الذي يدبر التاريخ.
وهذا من أعظم ما يربي عليه الوحي حملة الحق.
حين يشتد الباطل قد يظنون أن عليهم أن يروا نهايته الآن حتى يطمئنوا.
لكن الله يعلمهم:
اعرفوا الحق.
اثبتوا عليه.
ثم ارتقبوا.

فليس تأخر النتيجة خللاً في الوعد.
وقد يطول الطريق لأن الله يصنع في الطريق أشياء ليست أقل أهمية من الوصول.
يصنع المؤمنين.
ويميز الصادقين.
ويستخرج ما في القلوب.
ويقسم الحجة.
ويعمل.
ثم إذا جاء أمره جاء في الوقت الذي أراده هو، لا الوقت الذي استعجله الناس.
﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.
مرة أخرى:
مبين.
كان الكتاب مبيناً.
وكان الرسول مبيناً.
والآن الدخان مبين.
وهنا تبلغ المفارقة ذروتها.
كان يمكن للإنسان أن يتعامل مع الكلمات.
والآن صار أمام المشهد.
كان يمكن أن يسمع.
والآن صار يرى ويزوق.
كان البيان الأول رحمةً تدعوه.
أما هذا البيان فمصحوب بالعذاب.
ولذلك فإن أخطر تأجيل في حياة الإنسان هو تأجيل الإيمان إلى اللحظة التي لا يعود فيها
الإيمان اختياراً حراً أمام الغيب.
الإيمان قيمته في أنك تصدق الخبر قبل أن يصير مشاهدة.
أن ترى بوعد الله ما لا تراه عينك بعد.
أن تعمل للجنة وأنت لم ترها.
وأن تخاف النار وأنت لم ترها.
وأن تثق بحكم الله والتاريخ أمامك يبدو مضطرباً.

أما حين تتكشف الحقيقة، فإن كثيراً مما كان يسمى «إيماناً» يصبح اضطراراً إلى الاعتراف بالواقع.

وهذا ما تصوره الآيات:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

ما أسرع الإنسان إلى الله حين تسقط عنه أسباب القوة.
اللسان الذي كان يجادل يقول الآن:

ربنا.

والقلب الذي كان يشك يقول:

إنا مؤمنون.

والذين كانوا يلعبون صاروا يتضرعون.

فماذا تغير؟

هل جاءهم دليل جديد أقوى من الكتاب؟

كان الكتاب مبيناً.

هل جاءهم رسول أوضح؟

كان الرسول مبيناً.

الذي تغير ليس قوة البرهان.

الذي تغير درجة الألم.

وهذه حقيقة مخيفة عن النفس البشرية.

أن بعض القلوب لا ينقصها البيان.

ينقصها أن تشعر بحاجتها إليه.

حين يكون الجسد صحيحاً قد يطول الغرور.

وحين يكون المال حاضراً قد يظن الإنسان أنه في أمان.

وحين تكون القوة معه قد يبدو له الحديث عن الافتقار كلاماً نظرياً.

ثم تأتي لحظة ينكشف فيها كم كان ضعيفاً.

مرض صغير يعيد ترتيب العالم.

خبر واحد يجعل المال بلا طعم.

فقد شخص يجعل البيت الواسع ضيقاً.

لحظة خوف تجعل الإنسان ينطق باسم الله الذي كان يغفل عنه في الرخاء.

والقرآن لا يذم افتقار الإنسان عند الشدة.
بل يفتح له أبواب الرجوع.
لكن المأساة أن يكون الرجوع مؤقتاً، رجوعاً إلى الله طلباً لكشف الألم، لا رجوعاً إلى الله
لأنه الله.

ولهذا تقول الآيات بعد ذلك:
﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾.
هذه من أكثر الآيات كشفاً لطبيعة الإنسان.
قد يبدو صادقاً تحت الضغط.
يبكي.

يدعو.

يعد.

يقول: إن نجيتني فلن أعود.

ثم ينكشف البلاء.

وتعود الصحة.

ويهدأ الخوف.

وتفتح الدنيا أبوابها من جديد.

فيعود الإنسان.

كأن الألم كان هو الذي يتوب، لا القلب.

كأن الخوف هو الذي عبد، لا الإنسان.

وهنا يظهر الفرق بين توبة أحدثها انكشاف الحقيقة وتوبة أحدثها مجرد الرغبة في زوال
الوجع.

الأولى تبقى بعد زوال الألم.

والثانية تنتهي بانتهائه.

كم من إنسان قال في مرضه كلمات لو بقي وفيّاً لها لتغيرت حياته.

وكم من إنسان رأى الموت قريباً فصغرت الدنيا في عينه أياماً، ثم لما ابتعد الخطر عادت
الدنيا تكبر شيئاً فشيئاً حتى حجب الآخرة من جديد.

البلاء أزاح الستار.

لكنه لم يقتلع الحب القديم من القلب.

ولهذا يقول الله:
﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾.
الله يعلم ما في النفوس.
لا تخدعه حرارة اللحظة.
ولا كثرة الدموع.
ولا وعود الخائفين.
إنه يعلم من تاب إليه، ومن طلب فقط أن تزول القبضة عن عنقه ليعود إلى الطريق نفسه.
ثم تأتي الآية الفاصلة:
﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.
هناك إذن إنذار.
وهناك إهمال.
وهناك كشف للعذاب قليلاً.
وهناك عودة.
ثم هناك حد.
البطشة الكبرى.
وهنا يجب ألا نفهم الإهمال خطأً.
فالإهمال ليس عجزاً.
وتأخر العقوبة ليس نسياناً.
والستر ليس رضا.
وهذه من أخطر أوهام العصاة والطغاة جميعاً.
يمضي يوم ولم يقع شيء.
ثم شهر.
ثم سنة.
فتبدأ النفس تستخرج من التأخير شهادة براءة.
يقول الظالم في داخله:
لو كنت مخطئاً لعوقبت.
ويقول العاصي:
ها أنا أفعل منذ زمن ولم يحدث شيء.

لكن الذي يقرأ سورة الدخان يعرف أن بين الذنب والعقوبة مساحة اسمها:
الإمهال.

والإمهال نفسه امتحان.

هل تفهمه فرصة للرجوع؟

أم تفهمه إذناً للاستقرار؟

فرعون أمهل.

وقومه أمهلوا.

وأرسل إليهم رسول كريم.

ورأوا الآيات.

وكان يمكن أن تكون كل لحظة من لحظات التأخير طريقاً إلى النجاة.

لكن حين تحولت المهلة إلى زيادة في الطغيان، جاءت النهاية.

وهنا تمهد سورة الدخان لنا باب قصتها الكبرى.

فالذين أمام النبي صلى الله عليه وسلم ليسوا أول قوم ظنوا أن قوتهم ستحميهم.

قبلهم كان رجل يقول عملياً للعالم:

أنا الأعلى.

وراءه جند.

وأمامه مستضعفون.

وله جنات وعيون ومقام كريم.

كان كل شيء في ظاهر الأرض يقول إن فرعون هو الذي يقرر.

ثم دخل موسى.

عبد واحد يحمل كلمة من عند الله.

ومن تلك اللحظة بدأ التاريخ الحقيقي.

لا التاريخ الذي تكتبه قوة القصر.

بل التاريخ الذي يكتبه أمر الله.

وهكذا تنتقل بنا السورة من الدخان إلى فرعون، لا انتقالاً في الموضوع، بل انتقالاً في

البرهان:

أنستبعدون البطشة؟

انظروا إلى من بطشنا بهم قبلكم.

أتظنون أن الملك يمنع النهاية؟
انظروا إلى من كانت له مصر ثم لم يستطع أن يمتلك لنفسه نفساً واحداً حين أحاط به الماء.
أتظنون أن الإمهال يعني النجاة؟
لقد أمهل فرعون حتى ظن أن الطريق له.
ثم كان البحر ينتظره.
وهنا تبدأ صفحة أخرى من سورة الدخان:
صفحة الطاغية الذي ملك أشياء كثيرة، لكنه لم يملك النهاية.

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾

حين يدخل الوحي قصر الطغيان

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدَ اللَّهِ إِنَّي لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجِعُونِ ﴿٤﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٥﴾ فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مَجْرُمُونَ ﴿٦﴾﴾

بعد أن قالت السورة:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾

لم تترك البطشة وعداً مجرداً في المستقبل.

فتحت نافذة في التاريخ.

وقالت للسامعين:

إن أردتم أن تعرفوا كيف تنتهي القوة حين تعلو على الله، فانظروا خلفكم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

ها هو فرعون يعود إلى المشهد.

ليس بوصفه شخصيةً تاريخيةً بعيدة، بل بوصفه نموذجاً متكرراً للطغيان حين ينسى صاحبه حده.

ولعل اختيار قصة فرعون هنا بالغ الدقة؛ لأن سورة الدخان تدور منذ بدايتها حول السؤال عن الربوبية:

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

وفرعون هو النموذج الأوضح للإنسان حين ينازع هذه الحقيقة في الأرض.

ليس لأنه استطاع أن يخرج من ملك الله.

ذلك مستحيل.

ولكن لأنه عاش داخل ملك الله وهو يتصرف كأنه مالك مستقل.

يتنفس هواء الله.

ويأكل رزق الله.

ويمشي على أرض الله.

ويحكم عباد الله.

ثم يستعمل ما أعطاه الله في التكبر على الله.
وهذه هي المفارقة التي يقوم عليها كل طغيان.
الطاغية لا يصنع قوته من العدم.
كل أداة يستخدمها في الاستعلاء وصلت إليه أولاً بوصفها نعمة.
العقل نعمة.

والمال نعمة.

والسلطان نعمة.

والجند نعمة.

والصحة نعمة.

والمكانة نعمة.

لكن الإنسان قد يأخذ النعمة، ثم يبني بها جداراً يحجبه عن المنعم.
وقد يأخذ القوة، ثم يتوهم أنها شهادة على أنه لا يحتاج إلى الله.
وهنا تتحول النعمة إلى فتنة.

ولهذا قال:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

فالملك امتحان.

والضعف امتحان.

والغنى امتحان.

والفقر امتحان.

والظهور امتحان.

والخفاء امتحان.

وليس السؤال: ماذا أعطيت؟

بل:

ماذا صنعت بما أعطيت؟

قد يكون الإنسان فقيراً وينجح في امتحانه.

وقد يكون ملكاً ويفشل.

وقد يمتلك أرضاً كاملة ولا يمتلك نفسه أمام الكبر.

ثم يقول:

﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

ما أجمل هذه المقابلة.

قوم فرعون.

وفي مواجهتهم:

رسول كريم.

لم يقل فقط: موسى.

بل وصفه بما يكشف طبيعة حامل الرسالة:

كريم.

فالذي دخل على الطاغية لم يدخل طامعاً في ملكه.

ولم يدخل باحثاً عن مكان إلى جواره.

ولم يذهب ليأخذ نصيباً من القصر.

كان يحمل شيئاً أكبر من القصر كله.

كان يحمل رسالة من رب السماوات والأرض.

وهذا هو سر حرية الأنبياء أمام الملوك.

من امتلأ قلبه بالله، صغر أمامه سلطان البشر.

ولهذا يستطيع موسى أن يقف في وجه فرعون من غير أن تكون وراءه دولة، ولا جيش،

ولا كنوز.

إن وراءه شيئاً أعظم:

تكليف الله.

وفرعون يستطيع أن يملك أجساد الناس.

لكنه لا يستطيع أن يشتري قلباً عرف ربه.

وهذه هي القوة التي لا يفهمها الطغاة.

يحسبون الناس جميعاً بالأدوات التي يملكونها.

من خاف قطع رزقه خضع.

ومن خاف سجنه سكت.

ومن خاف الموت تراجع.

لكن ماذا يفعل الطاغية بإنسان يعرف أن الرزق من الله، وأن العمر بيد الله، وأن الموت

انتقال إلى الله؟

هنا تفشل أدوات كثيرة.
ولذلك كانت العبودية لله أعمق منابع الحرية.
ليس لأن المؤمن لا يخاف بطبعه.
بل لأن خوفاً أعظم أعاد ترتيب مخاوفه.
وليس لأنه لا يحب الحياة.
بل لأنه عرف أن الحياة ليست أعلى شيء.
ولهذا يدخل موسى على فرعون وهو رسول كريم.
ثم يبدأ مطالبه:
﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.
توقف عند:
﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾.
كان فرعون يتعامل مع بني إسرائيل كما لو كانوا ملكاً له.
أيدياً للعمل.
وأجساداً للتسخير.
وقوماً يستطيع أن يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم.
لكن موسى يعيد تعريفهم بكلمتين:
عباد الله.
ليسوا عباد فرعون.
وهذه الجملة وحدها ثورة في ميزان الإنسان.
فالطاغية يبني سلطانه على تغيير تعريف البشر.
يجعل الإنسان رقماً.
أداة.
تابعاً.
مورداً.
جندياً.
صوتاً.
جسداً يستخدمه متى شاء.
لكن الوحي يعيد الاسم الأصلي:

عبد الله.

ومن كان عبداً لله لم يكن ملكاً مطلقاً لخلق.

قد يقهر جسده.

وقد يسجن.

وقد يستضعف.

لكن أصل كرامته ليس منحة من الحاكم حتى يستطيع الحاكم أن يسحبها.
إنها متصلة بعلاقته بربه.

ولهذا جاء موسى ليقول لفرعون في المعنى:

هؤلاء الذين تظنهم جزءاً من ممتلكاتك ليسوا لك.

إنهم لله.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾.

ردوهم إلى الحرية التي أرادها الله لهم.

أخرجوا أيديكم عن رقابهم.

وهنا نكتشف أن الصراع في قصة موسى ليس صراعاً سياسياً مجرداً على السلطة.

إنه صراع على تعريف الإنسان نفسه.

هل الإنسان عبد لله؟

أم مادة في مشروع الطاغية؟

والفرق بين الرؤيتين هو الفرق بين الرسالة والاستبداد.

ثم يقول موسى:

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

مرة أخرى تأتي صفة أخلاقية:

كريم.

أمين.

كأن القرآن يريد أن يقول إن القوة الرسالية لا تنفصل عن نقاء حاملها.

فالرسول لا يطلب منهم شيئاً لنفسه.

لا يخدعهم.

ولا يسرقهم باسم الدين.

ولا يصنع من الرسالة سلماً لذاته.

إنه أمين عليها.

وأمين معهم.

وهذه الأمانة تجعل الكلمة أثقل من أن تُختزل في نزاع مصالح.

ثم ترتفع المواجهة إلى جذرها:

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

هذه هي الجريمة الكبرى.

العلو.

ليس مجرد معصية عابرة.

بل هيئة كاملة للنفس.

أن يرى الإنسان نفسه فوق الحد.

فوق الحق.

فوق النصيحة.

فوق الناس.

ثم يصل به الوهم إلى أن يتعامل مع أمر الله كما لو كان شيئاً يستطيع أن يرفضه من موقع

السيادة.

وهنا نفهم لماذا كان الكبر بهذه الخطورة.

فالذنب قد يقع من عبد يعرف أنه عبد.

يضعف.

ثم يبكي.

ثم يرجع.

لكن الكبر يريد أن يغير العلاقة أصلاً.

لا يريد أن يكون عبداً أخطأ.

بل يريد أن يكون سيّداً يقرر ما يقبل وما يرفض.

ومن هنا قال موسى:

﴿لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

أي لا تتجاوزوا مقامكم.

اعرفوا من أنتم.

واعرفوا من ربكم.

إن أكبر خطأ في حياة الإنسان أن يخطئ في قياس نفسه.
 قد يعرف تفاصيل كثيرة، لكنه يجهل حجمه الحقيقي في الوجود.
 يرى نفسه عظيمًا لأنه يملك.
 أو لأنه يُطاع.
 أو لأن الناس تصفق له.
 ثم يكفي أن يتوقف قلبه لحظات ليعرف كم كانت تلك العظمة هشة.
 الإنسان الذي لا يستطيع أن يأمر قلبه أن ينبض نبضة إضافية إذا جاء أجله، كيف يعلو
 على الذي خلق القلب والزمن والأجل؟
 لكن الطغيان نوع من فقدان البصر.
 يرى صاحبه سلطانه.
 ولا يرى أنه مؤقت.
 يرى الناس تحته.
 ولا يرى نفسه تحت سلطان الله.
 يرى القصر.
 ولا يرى القبر.
 يرى اليوم.
 ولا يرى ما بعده.
 ولهذا يأتي الوحي ليعيد إلى الإنسان أبعاد الرؤية التي حذفها الغرور.
 ثم يقول موسى:
 ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.
 وهنا تعود كلمة:
 مبین.
 كتاب مبین.
 رسول مبین.
 دخان مبین.
 والآل:
 سلطان مبین.
 كأن السورة محاطة بالبيان من كل جانب.

وهذا يزيد مأساة التكذيب.
المشكلة لم تكن ندرة العلامات.
بل كثافة الحجب في القلب.
جاء موسى بالحجة.
لكن من امتلأ بالعلو لا ينقصه البرهان بقدر ما ينقصه التواضع أمام البرهان.
وهذه حقيقة تتكرر في الإنسان.
قد يكون الدليل أمامه.
لكن الاعتراف به سيهدم صورةً بناها لنفسه سنوات.
وسيطلب منه أن يعتذر.
أو يتراجع.
أو يترك منفعة.
أو يعيد حقاً.
فيفضل أن يشك في الدليل على أن يهدم صنمه الداخلي.
وما أكثر الأصنام التي لا تصنع من حجر.
هناك صنم الرأي.
وصنم الشهرة.
وصنم المكانة.
وصنم الحزب.
وصنم الجماعة.
وصنم الذات.
وقد يرفض الإنسان الحقيقة لا لأنها غامضة، بل لأنها ستجبره أن ينزل عن عرش صغير بناه داخل نفسه.
ولهذا كان خطاب موسى:
﴿لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.
حين يعجز الطغيان عن الحجة
ثم يقول موسى:
﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾.
حين يعجز الباطل عن إسكات الكلمة بالحجة، قد يحاول إسكات صاحبها بالقوة.

وهذا قانون قديم.
ما دام الرسول يتكلم، فهناك احتمال أن يسمع الناس.
وما دام الناس يسمعون، فقد تنكسر هيبة الطاغية في قلوبهم.
والطغيان يعرف أن سلطانه لا يقوم على السلاح وحده.
يقوم أيضاً على الصورة.
أن يظن الناس أنه لا يُرد.
ولا يُراجع.
ولا يقف أحد أمامه.
ولهذا تكون الكلمة الصادقة خطرة عليه.
لا لأنها تملك جيشاً.
بل لأنها تكسر السحر.
تقول للناس:
هذا الذي تخافونه عبد مثلكم.
يمرض.
ويجوع.
وينام.
ويموت.
وفوقه رب.
وحين تنكسر الصورة في القلب يبدأ سقوط الطاغية قبل سقوط قصره.
ولذلك يهددون الرسل.
أما موسى فيقول:
﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.
ما أعظم هذه العبارة في مقام الخوف.
لم يقل:
عذت بجندي.
ولا:
عذت بقومي.
ولا:

عذت بخطي.

بل:

بربي وربكم.

حتى الذين يهدونه هو أيضاً ربهم.

هم لا يخرجون عن ملكه وهم يهدون رسوله.

واليد التي سترفع جراً على موسى لا تتحرك خارج سلطان الله.

والقلب الذي يأمر بالقتل لا ينبض إلا بإذن الله.

وهذا لا يعني ترك الأسباب.

لكن يعني ألا تتحول الأسباب إلى إله آخر في القلب.

تأخذ بها.

لكن لا تسكن إليها.

تخاف من الخطر.

لكن لا تنسى من يملك الخطر.

ثم يقول:

﴿وَأَنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُون﴾.

إن لم تقبلوا الحق، فلا تحولوا رفضكم إلى حرب على من يحمله.

لكن الطغيان قلما يكفي بأن يكفر.

يريد أن يصنع بيئة لا يستطيع فيها الإيمان أن يتنفس.

لأن مجرد وجود المؤمن الحر يزججه.

وجود إنسان لا يسبح بحمده تهديد.

وجود ضمير لا يشتريه تهديد.

وجود كلمة تقول «لا» حين يقول الجميع «نعم» تهديد.

ولهذا فالمعركة أعمق من اختلاف فكري.

إنها معركة بين ربوبية الله وبين نفس تريد أن يستسلم لها كل شيء.

ثم يصل موسى إلى لحظة يعلم فيها أن القوم تجاوزوا مساحة الاستجابة:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾.

يا لها من لحظة ثقيلة.

النبي الذي جاء رحمةً يدعو الآن على واقع بلغ من الإجرام حداً لم يعد معه الحوار هو
المشهد التالي.

لكن لاحظ:

لم ينتقم موسى لنفسه.

رجع إلى ربه.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾.

القرار الأخير لله.

وهذه من أعظم أخلاق النبوة في الصراع.

لا تتحول الرسالة إلى ثأر شخصي.

لا يصبح الألم الخاص هو الذي يحدد ميزان الحق.

يلعب الرسول.

ويصبر.

ويحذر.

ثم يرد الأمر إلى الله.

وهنا يأتي الجواب.

لكن الجواب لن يكون جيشاً ينزل من السماء.

سيكون أمراً عجيماً:

اخرج ليلاً.

وخلفك قوم مستضعفون.

وأمامك البحر.

وخلفك فرعون.

ومن يقرأ المشهد بعين الأسباب وحدها قد يقول:

هذه النهاية.

لكن من قرأ أول السورة يعرف:

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا﴾.

وها هو الأمر يأتي.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾

حين يكون الطريقُ إلى النجاة في قلب الظلام
قال الله تعالى:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿١٠٠﴾ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ رَهْوَإِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

مرة أخرى يعود الليل في سورة الدخان.

في البداية:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾.

والآن:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً﴾.

ليل نزل فيه الوحي.

وليل خرج فيه المستضعفون إلى الحرية.

وكان لهذه السورة علاقة خفية بالليل: حين تسكن أعين الناس، تتحرك أقدار عظيمة.

ليس كل ما يصنعه الله لك يحدث في الضوء.

وقد تبدأ النجاة في ساعة يظن فيها الإنسان أنه محاط بالظلام.

كان بنو إسرائيل يخرجون ليلاً.

لا يحملون مظاهر المنتصرين.

لا مواكب.

لا رايات إمبراطورية.

قوم يريدون النجاة بأجسادهم.

وراءهم دولة.

وجيش.

وطاغية.

لكن الله سماهم:

﴿عِبَادِي﴾.

وهنا تتغير الموازين.

كان موسى قد قال:

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾.

والآن يقول الله:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾.

هذه الإضافة هي سر النجاة.

عبادي.

قد يكونون ضعفاء في ميزان الأرض.

لكنهم ليسوا متروكين.

قد يطاردهم فرعون.

لكن لهم رب.

وحين يستقر هذا المعنى في القلب يتغير تعريف الضعف.

ليس الضعيف من قلَّ سلاحه فقط.

الضعيف الحقيقي من انقطع عن الله ولو امتلأت مخازنه بالسلاح.

وليس القوي من كثرت جيوشه فقط.

فقد يكون رجلاً واحداً واقفاً أمام بحر، لكنه متصل بأمر الله، فيكون أثبت من دولة

كاملة.

ثم قال:

﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

لم يعد لهم أن الطريق سيكون بلا خوف.

سيتبعون.

سيقترب العدو.

وسيسمعون وقع المطاردة.

وسيروا الخطر خلفهم.

وهذا من تربية القرآن للمؤمن:

النجاة لا تعني دائماً غياب اللحظات المرعبة.

وقد يكون وعد الله حقاً، ومع ذلك تمر قبل تحقيقه بلحظة تشعر فيها أن الأسباب كلها

أغلقت.

وهنا يمتحن اليقين.

أيمكنك أن تثق بالله عندما لا ترى بعدُ كيف سيأتي الفرج؟

كثيرون يستطيعون تفسير النجاة بعد وقوعها.

لكن مقام الإيمان هو أن تمشي قبل أن ترى نهاية الطريق.
 موسى يعلم أنهم متبعون.
 ومع ذلك يسري.
 لأن التكليف واضح.
 وهذه قاعدة من أعظم قواعد السير إلى الله:
 لا تحتاج أن ترى الطريق كله حتى تطيع الخطوة التي أمرك الله بها الآن.
 قد لا تعرف كيف ستفتح النهاية.
 لكن يكفي أن تعرف من أمرك.
 وهكذا وصلوا إلى البحر.
 بحر أمامهم.
 وعدو خلفهم.
 ولو أن العقل حُبس في المشهد المادي وحده لرأى حصاراً كاملاً.
 لكن المؤمن لا يقرأ الواقع من صورة واحدة.
 يعرف أن هناك متغيراً لا يدخل في حساب الطغاة:
 أمر الله.
 والله الذي خلق البحر لم يجعله قانوناً مستقلاً عنه.
 الماء لا يعبد عادته.
 الماء يعبد ربه.
 والبحر الذي جُعل حاجزاً يستطيع الله أن يجعله طريقاً.
 والشيء نفسه الذي تراه أنت نهاية قد يكون في تقدير الله بداية.
 ثم تأتي العبارة العجيبة:
 ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾.
 اتركه ساكناً منفرجاً.
 لا تستعجل إغلاق الطريق خلفك.
 هنا شيء لا يعرفه فرعون.
 فرعون يرى البحر مفتوحاً، فيحسب أن الطريق الذي نجا منه موسى يصلح أيضاً لنجاته.
 وهذه واحدة من أعظم خدع القوة.
 أن يظن الإنسان أن تشابه الطريق يعني تشابه المصير.

موسى دخل البحر بأمر الله.
وفرعون دخله بطغيانه.
الماء واحد.

لكن العلاقة بالله مختلفة.
وكم من طريق كان نجاة لعبد، فصار هلاكاً لطاغية.
لأن الأشياء لا تحمل معناها وحدها بمعزل عن موقف الإنسان من ربه.
ثم تأتي الكلمة الحاسمة:
﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

لم يقل:
قد يغرقون.

ولا:
سيواجهون خطراً.
بل:

مغرقون.
بينما كانوا ما يزالون جنداً يتحركون.
ما تزال الأسلحة في أيديهم.
والقوة ظاهرة عليهم.
لكن القرآن يخبرك بحقيقتهم من وراء الصورة:
جند مغرقون.

وهذا هو الفارق بين عين ترى الحاضر، ووحى يرى المصير بعلم الله.
لو وقفت يومها على الشاطئ ولم تعرف خبر الله، لقلت:
هذا جيش.

لكن القرآن يقول:
هذا جيش انتهى أمره وإن كان ما يزال يتحرك.
وكم من أشياء في الدنيا تبدو في قمة حياتها وهي أقرب إلى نهايتها مما تتصور.
دولة.

سلطان.
مال.

جسد.

شهرة.

حضارة.

قد ترى ظاهرها ممتلئاً بالحركة.

ولا تعلم أن بينها وبين الزوال لحظات.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يعبد المشهد.

المشهد يتغير.

وإنما يعبد رب المشهد.

فرعون لم يعرف أنه كان يطارده قوماً إلى قبره.

ظن أنه يطاردهم ليستعيد سلطانه.

وما علم أن الله يسوقه إلى موضع النهاية.

وهكذا قد يمشي الإنسان بإرادته إلى القدر الذي كان يظن أنه يهرب منه.

دخل فرعون البحر بقوة القرار.

لكن البحر لم يكن له.

دخل بسلاحه.

وجنده.

وكبريائه.

ولم يعرف أن كل ما حمله معه لن يصنع له فجوة واحدة في الماء حين يأتي الأمر.

وهنا تسقط واحدة من أكبر أكاذيب الطغيان:

أن كثرة الأدوات تمنح صاحبها سيادة على المصير.

لم تنفع الجنود.

ولا الخيل.

ولا الهيبة.

ولا التاريخ الطويل من الحكم.

كانت هناك لحظة واحدة قلبت كل شيء.

ونخرج من كان عبداً في حساب فرعون.

وغرق من كان رباً في وهم نفسه.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونِ﴾

حين يبقى النعيم ويرحل صاحبه

قال الله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونِ ﴿١﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٥﴾﴾

انتهى الجيش.

لكن السورة لا تذهب مباشرة إلى مشهد آخر.

تعود إلى الأشياء التي تركوها.

وكان القرآن يأخذنا بعد الغرق في جولة هادئة داخل القصور التي خلت من أصحابها.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾

ما أثقل كلمة:

تركوا.

الإنسان يقضي جانباً كبيراً من حياته وهو يقول:

أملك.

يبقي.

أرضي.

مالي.

مزرعتي.

منصبي.

ثم يأتي القرآن عند النهاية ويغير الفعل كله:

تركوا.

كل ما كنت تقول عنه:

لي.

سيأتي يوم يصح فيه أن يقال:

تركه.

وهذه ليست قصة فرعون وحده.

إنها قصة الملكية البشرية كلها.
 نحن لا نملك الأشياء بمعنى البقاء معها.
 نستعملها مدة.
 ثم نفارقها.
 وقد تفارقنا قبل أن نفارق الدنيا.
 فالمال الذي أمضيت عمرك تجمعها قد ينتقل إلى غيرك وأنت حي.
 والبيت الذي بنيت قد يسكنه من لا تعرف.
 والكرسي الذي ظننت أنه صيغ باسمك سيجلس عليه بعدك إنسان آخر.
 والمدينة التي اهتزت لمرور موكبك ستواصل صباحها بعد موتك.
 هذه الحقيقة لا تريد أن تحرم الإنسان من النعمة.
 بل أن تحرره من عبوديتها.
 امتلك ما أباح الله لك.
 لكن لا تسمح لما في يدك أن يوهبك أنه باق لك.
 استمتع.
 واشكر.
 وأنفق.
 وابن.
 لكن تذكر دائماً:
 ستترك.
 ثم تعدد السورة ما تركوه:
 ﴿مَنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.
 جنات.
 عيون.
 زروع.
 مقام كريم.
 كل المفردات التي تصنع في حس الإنسان صورة النجاح الأرضي.
 خضرة.
 ماء.

غذاء.

مكانة.

ترف.

ثم:

﴿وَنِعْمَ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾.

كانوا يتمتعون.

كانوا يظنون، ربما، أن هذا هو العالم.

أن هذه الجنات خلقت لتؤكد لهم أنهم الصفوة.

وأن هذه القصور شهادة على صواب طريقهم.

وهنا تكشف السورة خطأ شديد الخطورة:

النعمة ليست دائماً شهادة رضا.

قد يعطي الله الإنسان ويمتحنه بالعطاء.

كما يبتليه بالمنع.

وقد تتسع الدنيا على عبد بينما يضيق مستقبله الأخروي.

ولهذا لا يجوز أن تقرأ الحق من حجم القصور.

ولا الباطل من فقر أصحابه.

وكانت لقوم فرعون الجنات.

وموسى كان مطاردًا.

لو كان المال وحده ميزان الحقيقة، لكان فرعون أقرب إلى الله.

لكن السورة حطمت هذا الميزان في البحر.

ثم أخذتنا إلى جناته الفارغة لتقول:

انظروا إلى ما كانت الدنيا تصرخ بأنه نجاح.

أين صاحبه الآن؟

وهذه من أقوى الطرق القرآنية في علاج الافتتان بالدنيا:

لا تنظر إلى الشيء وهو في يد صاحبه فقط.

انظر إليه بعد أن تموت اليد.

تأمل القصر بعد موت مالكة.

والمنتصب بعد رحيل صاحبه.

والمال حين ينتقل إلى الورثة.

عندئذ تنكشف حقيقة الملك.

وكل شيء فقدته بالموت لم يكن ملكاً نهائياً لك.

كان متاعاً مؤجلاً الاسترداد.

ثم يقول:

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

هذا هو القانون الذي ينسأه الإنسان وهو يجمع.

إن الأشياء لا تموت غالباً حين يموت صاحبها.

تنتقل.

أنت تمضي.

وهي تبقى قليلاً ليد أخرى.

ثم تمضي تلك اليد أيضاً.

وكان الدنيا بيت كبير يتبادل الناس مفاتيحه ثم يخرج الجميع.

من دخل قبلك خرج.

ومن دخل بعدك سيخرج.

فكيف يجعل العاقل كل قلبه معلقاً بمكان لا يستطيع الإقامة فيه؟

ثم تأتي واحدة من أدهش آيات السورة:

﴿فَأَبَکْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضُ﴾.

يا لها من نهاية.

قوم كانوا يملؤون الأرض ضجيجاً.

لهم سلطة.

وجنود.

ومقام.

ونعمة.

ثم يموتون فلا تبكي عليهم السماء والأرض.

كأن السورة تقيس حجم الإنسان بعد موته لا بحجم الضجيج الذي كان يصنعه، بل بحقيقة

مقامه عند الله.

وهنا سؤال يخترق القلب:

إذا خرجت من الدنيا، ماذا يفقد العالم من خير كان يمر من خلاله؟
هل يفقد صلاة؟
إحساناً؟
علماً؟
عدلاً؟
كلمة طيبة؟
يداً تمتد إلى ضعيف؟
قلباً يذكر الله؟
أم أن رحيلك لا يزيل إلا ضجيجاً كان يملأ المكان؟
فرعون أراد أن يجعل الأرض تبكي عند غضبه.
لكنها لم تبك عند موته.
وهذه هي هزيمة الغرور الأخيرة.
أن تقضي حياتك تصنع صورةً لنفسك في عيون الناس، ثم تكتشف أن الوجود لم يكن محتاجاً إلى وهمك.
﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.
انتهت المهلة.
وهنا تتصل الآية بما سبق.
كم أمهلوا.
كم رأوا.
كم سمعوا.
كم جاءهم موسى.
كم قامت أمامهم الآيات.
لكن للإمهال نهاية.
وهذا ما تريد سورة الدخان أن تزرعه في القلب منذ أولها:
لا تحول صبر الله عليك إلى حجة لك.
ولا تجعل تأخر الحساب سبباً لنسيانه.
فالزمن الذي يبدو لك مفتوحاً له حد لا تراه.
وسياتي يوم تتحول فيه كل أفعال المستقبل إلى ماض:

کنت.
ملکت.
سکنت.
حکمت.
جمعت.
ثم:
ترکت.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

النجاة ليست خروجاً من البحر فقط

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ

﴿٢﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾.

بعد أن عرضت السورة ما تركه فرعون، التفتت إلى الطرف الآخر:

من نجا؟

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

لاحظ الفاعل:

نجينا.

موسى قاد.

وبنو إسرائيل ساروا.

والبحر انشق.

لكن القرآن يرد النجاة إلى مصدرها:

الله.

وهذا يحمي المؤمن بعد الفرج من آفة جديدة.

فقد ينجو الإنسان من الطاغية ثم يقع في طغيان نفسه.

ينسى ضعفه القديم.

وينسب النجاة إلى ذكائه.

أو شجاعته.

أو خطته.

لكن الوحي يقول:

تذكر يد الله في الطريق.

الأخذ بالأسباب واجب.

لكن نسبة الفضل إلى الله عبادة.

ثم وصف ما نجوا منه:

﴿الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

ليست كل الآلام الجسد سواء.
هناك ألم يضاف إليه الإذلال.
أن يُعامل الإنسان كأنه بلا كرامة.
أن يتحول إلى شيء.
أن يصير وجوده خاضعاً لهوى سيد أرضي.
وهذا من أبشع صور الاستبداد؛ لأنه لا يريد فقط طاعة الإنسان.
يريد كسر معنى الإنسان داخله.
ولهذا كان التحرير النبوي أعمق من نقل قوم من أرض إلى أرض.
إنه إخراجهم من عبودية الطاغية إلى مقام العبودية لله.
فالإنسان قد يخرج من سجن حديدي ويبقى داخله سجن من الخوف.
وقد يسقط فرعون الخارج ويبقى فرعون في النفس.
ولهذا تحتاج النجاة السياسية بعد وقوعها إلى نجاة تربوية وروحية طويلة.
فالحرية ليست أن يزول السيد الذي كان يضربك فقط.
الحرية الحقيقية أن تعرف من تعبد بعد زواله.
ثم وصف فرعون:
﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.
وهنا تعود كلمة العلو.
كان موسى قد قال:
﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.
لكن فرعون اختار العلو.
والسورة الآن تكتب نتيجة الاختيار:
﴿كَانَ عَلِيًّا﴾.
كأنه أصر على الصفة التي حذر الرسول منها.
ومن العجيب أن العلو الذي طلبه انتهى به إلى أسفل الماء.
أراد الارتفاع على عباد الله.
فأهلكه الله في البحر.
وهذه من سنن المعنى في القرآن:
من رفع نفسه بالباطل وضعه الله.

ومن خفض نفسه لله رفعه.

فالعلو الحقيقي لا يؤخذ باغتصاب مقامات الآخرين.

بل بالقرب من الله.

ثم قالت:

﴿مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

الإسراف تجاوز الحد.

وفرعون كله تجاوز للحد.

تجاوز حد الإنسان مع ربه.

وحد الحاكم مع الناس.

وحد القوة مع الضعفاء.

وحد النعمة مع الشكر.

وحين يتجاوز الإنسان الحدود في كل اتجاه يصبح سقوطه إعادةً للميزان.

ثم يقول سبحانه عن بني إسرائيل:

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾.

الاختيار هنا ليس امتيازاً فارغاً من التكليف.

فالاختيار في الوحي مسؤولية.

من أعطي هدايةً أكبر، صار مسؤوليته أمام الهداية أكبر.

ومن رأى من الآيات أكثر، لم يعد كمن لم ير.

ومن حُمل رسالةً لا يحق له أن يحولها إلى شرف عرقي أو تاريخي مجرد.

وهذه قاعدة لا تخص بني إسرائيل وحدهم من جهة العبرة:

كل نعمة هداية تحمل داخلها تكليفاً يناسبها.

أن تعرف القرآن نعمة.

لكنها مسؤولية.

أن تحفظ آية نعمة.

لكنها ستسألك: ماذا صنعت بي؟

أن ترى الحق نعمة.

لكن رؤيته تسقط بعض أعذارك.

ولهذا قال بعدها:

﴿وَاتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾.

حتى الآية امتحان.

وهذا معنى عجيب.

نحن نظن أن الابتلاء هو المصيبة فقط.

لكن القرآن يعلمنا أن النعمة نفسها بلاء.

والآية بلاء.

والنجاة بلاء.

والاختيار بلاء.

لأن كل ذلك يسألك:

ماذا ستفعل الآن؟

بعد أن رأيت البحر ينشق، هل سيصبح قلبك أوفى لله؟

بعد أن نجوت من فرعون، هل ستتحرق من قابلية صناعة فرعون جديد؟

بعد أن رأيت آيات الله، هل تستسلم للحق حين يخالف هواك؟

فالإنسان لا تنتهي امتحاناته عند باب النجاة.

قد تبدأ امتحانات أدق بعدها.

كان الاختبار أولاً:

هل تصبر تحت فرعون؟

ثم صار:

هل تشكر بعد فرعون؟

وهذه أصعب مما تبدو.

فالإنسان في الشدة يعرف أنه محتاج.

أما بعد الفرج فقد ينسى.

حين كان البحر أمامه صاح قلبه طالباً النجاة.

وحين تستقر به الأرض قد يعود الشك واللعب في صورة أخرى.

ولهذا لا يريد القرآن أن نصنع من التاريخ أصناماً للذاكرة.

يريدنا أن نتعلم.

كل جيل أمامه فرعونه بطريقة ما.

وكل نفس أمامها احتمال العلو.

وكل نعمة تحمل امتحانها.

وكل نجاة تسأل صاحبها:

هل عرفت من نجاك؟

وهنا تكون سورة الدخان قد أتمت درس التاريخ الأول.

لكنها لم تنته من الإنسان.

فالذي كذب موسى قد غرق.

لكن مرض التكذيب لم يغرق معه.

والذي قال:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾

سيظهر الآن بوجه جديد.

لقد سقط سؤال الطغيان السياسي.

وسياأتي سؤال أخطر:

ماذا لو كان الإنسان لا يؤمن أصلاً بأن وراء الموت شيئاً؟

فهنا ينتقل بناء السورة من مصير فرعون في التاريخ إلى مصير الإنسان بعد التاريخ.

من بحر أغرق جيشاً...

إلى موت يتلعب أجيالاً.

ومن سؤال:

من يملك الأرض؟

إلى السؤال الأعظم:

هل ينتهي الإنسان حين يدفن فيها؟

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى﴾

حين يريد الإنسان موتاً بلا ما بعده

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿١﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٢﴾ فَأْتُوا بِآبَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٤﴾﴾

بعد أن أخذتنا سورة الدخان إلى فرعون، ثم إلى البحر، ثم إلى القصور التي بقيت بعد أصحابها، تعود بنا إلى الذين يسمعون القرآن في الحاضر.

لكن السؤال لم يتغير كثيراً.

الإنسان هو الإنسان.

قد تبدل الممالك.

وتختلف اللغات.

وتتغير المدن.

لكن القلب الذي لا يريد أن يلقي الله يستطيع أن يصنع لنفسه الحجة ذاتها في كل عصر.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾

كأن السورة تشير إليهم بعد أن عرضت أمامهم مقبرة تاريخية كاملة.

فرعون مضى.

قومه مضوا.

الجنات انتقلت.

السماء والأرض لم تبكيا عليهما.

ثم هؤلاء، بعد كل ذلك، يقولون:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾

كل شيء ينتهي هنا.

ثموت.

ثم لا شيء.

يا لها من جملة قصيرة، ولكن لو دخل معناها إلى قلب الإنسان غير شكل الحياة كلها.

إذا لم يكن وراء الموت شيء، فإن كثيراً من الأسئلة الكبرى ستفقد جوابها النهائي.

ماذا عن مظلوم مات قبل أن يأخذ حقه؟

ماذا عن ظالم عاش مترفاً، ثم مات على فراشه دون أن يدفع ثمن دمة واحدة تسبب فيها؟
 ماذا عن عبد أخفى طاعته عن أعين الناس فلم يشكره أحد؟
 ماذا عن أم ذهبت سنواتها في ألم لا يعرفه إلا الله؟
 ماذا عن دم سُفك ثم انتصر قاتله في كتب التاريخ؟
 إذا كان الموت يحو الصفحة كلها، فبأي معنى يكون للعدل تمام؟
 إن إنكار البعث ليس مجرد موقف من حدث مستقبلي.
 إنه يعيد تشكيل معنى الحياة الحاضرة كلها.
 لأنك إذا أخرجت الآخرة من الحساب، ستجد نفسك مضطراً إلى مطالبة الدنيا بأن
 تعطيك كل شيء.
 كل العدل هنا.
 كل السعادة هنا.
 كل المكافأة هنا.
 كل الانتصار هنا.
 فإذا لم تأخذ حَقك هنا، بدا الوجود ناقصاً.
 وإذا مات المظلوم قبل أن يرى عدالة كاملة، بدا الأمر عبثاً.
 أما حين تدخل الآخرة إلى الوعي، يتسع المشهد.
 لا يعود الموت نهاية القضية.
 قد تغلق المحكمة الأرضية ملفاً.
 لكن الله لم يغلقه.
 قد يموت المجرم.
 لكنه لم يخرج من سلطان الله.
 وقد يموت المؤمن قبل أن يرى ثمرة صبره.
 لكن عمله لم يضع.
 وهنا نرى أن الإيمان بالبعث ليس فقط خبراً عن المستقبل.
 إنه حارس معنى الحاضر.
 هو الذي يمنع الألم من أن يصبح عبثاً.
 والتضحية من أن تصبح خسارة.
 والعدل من أن يبقى مشروعاً ناقصاً.

والخير الخفي من أن يضيع لأنه لم تصفق له الجماهير.
ولهذا كان البعث من أعمدة بناء الإنسان الأخلاقي.
فالذي يعلم أن هناك يوماً آخر يستطيع أن يخسر شيئاً في الدنيا من أجل الحق دون أن يظن أنه خسر كل شيء.

ويستطيع أن يصبر حين لا تأتيه المكافأة سريعاً.
ويستطيع أن يرفض الحرام وإن ربح به غيره.
لأنه لا يحاسب الحياة من نهايتها القريبة فقط.
هناك نهاية أخرى.

ولهذا فإن قولهم:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾

ليس مجرد إنكار لمشهد قيام الأجساد.
إنه محاولة لإغلاق الباب الذي يدخل منه الحساب.
وللنفس مصلحة عميقة في عالم بلا بعث إذا كانت تريد أن تعيش بلا مسؤولية نهائية.
أن تموت، ثم ينتهي كل شيء.
كم يبدو هذا مريحاً للهوى!
افعل ما تشاء.

اظلم إن استطعت الإفلات من القانون.
خذ ما تستطيع.
استمتع.

ثم في النهاية يدخل الجميع العدم نفسه.
لا فرق بين ساجد وطاغية.
ولا بين من حفظ الأمانة ومن خان.
ولا بين اليد التي أطعمت جائعاً واليد التي سفكت دمًا.
الموت يسوي الجميع.

لكن القرآن يرفض هذا العبث.
لا لأن الإنسان يحب فكرة الحساب.
بل لأن رب العالمين أخبر أنه سيجمع الخلق.
والذي أوجدتهم أول مرة ليس عاجزاً عن إعادتهم.

ثم يقولون:

﴿فَأْتُوا بِآبَاءِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهنا نرى صورة أخرى من صور اللعب الذي ذكرته السورة:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

إنهم يريدون أن يحولوا الغيب إلى عرض تجريبي على شروطهم.
هاتوا آباءنا الآن.

اجعلوا القيامة تقع في اللحظة التي نطلبها.

قدموا لنا الآخرة وفق توقعيتنا.

وكان الإنسان لا يريد فقط دليلاً.

يريد أن يكون هو الذي يحدد لله كيف ومتى يكون الدليل.

وهذا ليس طلب هداية.

إنه لون من الاستعلاء داخل السؤال.

فإنه لم يقل إن الموتى سيبعثون كلها طالب مكذب بإحضارهم.

قال إن لهم ميقاتاً.

والقيامة ليست تجربة مخبرية يجربها الإنسان متى شاء.

إنها موعد يملكه الله.

وهذه القضية ستأتي بعد قليل صريحة:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هناك وقت.

لكن ليس أنت من يحدده.

وهذا ما يثقل على النفس التي تعودت أن تجعل نفسها مركز الأشياء.

تريد الله أن يجيب وفق توقعيتها.

والغيب أن ينكشف وفق طلبها.

والعقوبة أن تأتي حين تقترحها.

لكن العبد يتعلم أن الحقيقة لا تحتاج إلى أن تخضع لجدوله حتى تكون حقيقة.

الموت سيأتي في ميقاته.

والبعث في ميقاته.

والفصل في ميقاته.

ووظيفتك ليست أن تتحكم في الموعد.

بل أن تستعد له.

ثم لا يدخل القرآن معهم في استعراض طويل.

يلفت أعينهم إلى التاريخ مرة أخرى:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُيُوعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ما الذي يجعلك تظن أنك استثناء؟

هذا السؤال شديد الأهمية.

كل جيل يحمل في داخله وهماً خفياً بأنه أكثر ثباتاً من الذين مضوا.

نقرأ عن حضارات سقطت، لكننا نشعر أن حضارتنا باقية.

نقرأ عن أثرياء ماتوا، لكن مالنا يبدو لنا أكثر التصاقاً بنا.

نسمع عن شباب فاجأهم الموت، لكن الشباب في أجسادنا يوحي لنا بعقد خاص مع الزمن.

وهنا يأتي التاريخ ليفضح الوهم.

أقوام قبلك كانوا أقوى.

وأكثر.

وأشدّ عمراً.

وأوسع حضوراً.

ثم صاروا خبراً.

فما الذي يمنحك حصانة لم تكن لهم؟

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُيُوعَ﴾.

السؤال ليس بحثاً في تفاضل قومي مجرد.

إنه يهدم الغرور الذي يقول:

لن يحدث لنا ما حدث لهم.

والقرآن يكرر للإنسان:

لا تراهن على خصوصيتك الوهمية.

سنن الله لا تحابي من يصادمها.

والقوة التي لا يحرسها الحق يمكن أن تتحول إلى سبب في تضخم الغرور قبل السقوط.

ثم تحتم الآية:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

فالهلاك في السورة ليس عبثاً.

ولا لأن الله عاقب قومًا بلا سبب.

هناك جريمة.

وهناك إهمال.

وهناك رسل.

وهناك حجة.

ثم هناك نهاية.

وهذا يردنا إلى أول السورة:

﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

الإنذار يسبق الهلاك.

لأن الله لا يفاجئ الخلق بالعقوبة دون بيان.

لكن الذين يحولون الإنذار إلى مادة للعب لا يستطيعون بعد ذلك أن يجعلوا اللعب حجةً

حين يأتي الموعد.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾

حين يجيب الكون عن عبث الإنسان

قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

هنا تصل سورة الدخان إلى واحدة من أعظم جملها.

قبل قليل قالت عن البشر:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

والآن تقول عن الخلق:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.

هم يلعبون.

لكن الكون لم يُخلق لعباً.

وهنا تظهر المفارقة الكبرى في السورة.

إنسان يعيش باستخفاف داخل وجود لم يصنع باستخفاف.

إنسان يتعامل مع عمره كأنه لعبة، وهو جزء من كون قائم بالحق.

كأن الخلل ليس في العالم.

الخلل في طريقة الإنسان في قراءة العالم.

انظر إلى السماء.

وإلى الأرض.

وإلى هذا التناسب الهائل الذي تقوم عليه حياتك.

إلى الجسد الذي يعمل داخلك بلا استئذان منك.

إلى الميلاذ.

والموت.

والزمن.

والليل.

والنهار.

والبهار.

والأحياء.

ثم أسأل:

هل يبدو كل هذا كأنه منصة ضخمة أقيمت ليأكل الإنسان ويشرب ويتكاثر ثم يختفي بلا غاية؟

أيمكن أن يكون هذا البناء العظيم كله مقدمةً لشيء؟
أن يُعطى الإنسان عقلاً يسأل عن العدل، وقلباً يشتاقي إلى الخلود، وضميراً يعرف الخير والشر، ورسالة تهديه، ثم ينتهي كل ذلك إلى تراب لا بعده حساب؟
إن السورة ترد على إنكار البعث من جذر أعمق من مجرد إمكان إعادة الأجساد.
تقول:

انظروا إلى طبيعة الخلق نفسه.

لم نخلق السماوات والأرض لاعبين.

فالبعث ليس وصفاً للخلق.

ومن ثم لا يمكن أن تكون خاتمة عبثاً.

وهذه الآية تعيد تفسير حياتك كلها.

أنت لم توجد صدفةً بلا معنى.

ولم تُعط هذه الأيام لتقتلها.

ولم يُعطك الله القلب والعقل والسمع والبصر لتدور في حلقة الطعام واللذة والمكانة حتى تنتهي.

الوجود أثقل من ذلك.

أكرم من ذلك.

وأخطر من ذلك.

وهنا نحتاج أن نفهم معنى جدية الحياة في القرآن.

ليست الجدية أن تكون عابساً.

ولا أن تحرم نفسك من الطيبات.

ولا أن تنظر إلى الفرح كأنه خطيئة.

إنما الجدية أن تعرف أن لكل شيء موضعه.

أن تفرح دون أن تعبد الفرح.

وتمتلك دون أن يستعبدك الملك.

وتعمل في الدنيا دون أن تجعل الدنيا نهاية رؤيتك.
وتضحك دون أن تنسى أن لك موعداً.
إن القرآن لا ينتزعك من الحياة.

بل ينتزع الحياة من العبث.
يجعل الطعام شكراً.
والمال أمانة.

والعمر فرصة.
والألم ابتلاء.

والنعمة ابتلاء.
والعلم مسؤولية.

والقوة مسؤولية.
والحب أمانة.

والموت رجوعاً.

وهكذا يدخل المعنى إلى الأشياء فتخرج من الفراغ.
أما حين يغيب الله عن قراءة الوجود، فقد يبقى كل شيء موجوداً لكن معناه ييهت.
يصبح الإنسان قطعة حية تبحث عن أقصى إشباع قبل أن تنطفئ،
وهنا يبدأ العبث ولو كان صاحبه شديد النجاح في أعين الناس.

قد يمتلك مؤسسة ضخمة.

وقد يملأ الدنيا حضوراً.

لكن إذا لم يعرف لماذا يعيش، فكل نجاحاته إجابات عظيمة عن سؤال صغير، بينما
السؤال الكبير بقي بلا جواب.

إلى أين؟

والسورة تجيب:

إلى يوم الفصل.

لكنها قبل ذلك تقول:

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

هذه الكلمة تقف في مواجهة اللعب:

الحق.

خالق بالحق.
وكتاب مبين.
ورسول مبين.
وسلطان مبين.
ثم يوم فصل.
البناء كله يتجه في اتجاه واحد:
الحقيقة.
ومن هنا يمكن أن نرى أن مرض أهل السورة لم يكن فقط أنهم شكوا.
بل أنهم أرادوا أن يعيشوا في كون الحق كما لو كان كوناً بلا حق.
وهذا مستحيل إلى النهاية.
قد تستطيع أن تؤجل المواجهة.
لكن لا تستطيع أن تلغيها.
قد تمارس الظلم سنوات.
لكن وجود يوم الفصل يعني أن القصة لم تنته.
قد ترى الباطل عالياً.
لكن السورة أخذتك قبل قليل إلى فرعون لتقول لك:
لا تخط بين طول المشهد وحقيقة النهاية.
وقد يبدو لك أن المؤمن خسر أشياء كثيرة.
لكن الحكم لا يصدر قبل انتهاء الامتحان.
ولهذا كان من أعظم أخطاء الإنسان أن يحكم على القصص قبل نهايتها.
ينظر إلى الصالح المتعب ويقول:
ماذا استفاد؟
وينظر إلى الفاسد المترف ويقول:
انظر كيف نجح.
لكن القرآن يقول:
لم نصل بعد إلى المحكمة الأخيرة.
ما زالت الصفحة مفتوحة.
ومن دون الآخرة ستكون أحكام كثيرة على الحياة ناقصة.

أما يوم الفصل، فستظهر الصورة كاملة.
ولهذا قالت الآيات بعدها مباشرة:
﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.
فالحق الذي خُلقت به السماوات والأرض يقود إلى فصل.
ليس من الحق أن ينتهي الطائع والعاصي إلى النتيجة نفسها.
ولا المصلح والمفسد.
ولا النبي الذي أُوذي والطاغية الذي آذاه.
ولا الدم الذي سُفك واليد التي سفكته.
لا بد من فصل.
وقد يتأخر الفصل في الأرض.
لكن هذا لا يعني أنه ألغي.
إن يوماً واحداً في الآخرة يستطيع أن يعيد تفسير تاريخ كامل.
هناك ستكشف أشياء كان الناس يختلفون فيها.
وهناك تسقط الصور.
والألقاب.
والدعايات.
والمناصب.
وكل ما كان يستطيع أن يخفي الحقيقة في الدنيا.
لأن يوم الفصل لا يحتاج إلى أن يقنع الناس بمن كنت.
ستظهر الحقيقة نفسها.

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

اليوم الذي تسقط فيه العلاقات ويبقى حكم الله
قال الله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

بعد أن نفت السورة اللعب عن الخلق، كشفت الغاية التي يسير إليها الخلق:

يوم الفصل.

والتعبير نفسه يحتاج إلى أن يستقر في القلب.

لم يقل فقط:

يوم القيامة.

بل:

يوم الفصل.

لأن أشياء كثيرة في الدنيا تبدو مختلطة.

قد يلبس الباطل ثوب الحق.

وقد يرفع المنافق شعاراً جميلاً.

وقد يتهم بريء.

وقد يمدح مجرم.

وقد يموت إنسان وقد بقيت صورته عند الناس على غير الحقيقة.

الدنيا تسمح بمساحات واسعة من الالتباس.

لكنها ليست المحكمة النهائية.

هناك يوم الفصل.

يفصل الله فيه بين الحق والباطل.

وبين الصدق والكذب.

وبين الإيمان والتفاد.

وبين من ظلم ومن ظلم.

وبين ما رآه الناس وما كان يعلمه الله.

وما أرحم هذا المعنى بالمظلوم.

ليس عليك أن تستطيع تصحيح كل رواية قيلت عنك.
ولا أن تجعل كل إنسان يفهمك.
ولا أن تنتصر في كل محكمة أرضية.
هناك يوم لا تضيع فيه ورقة.
ولا شهادة.
ولا سر.
ولا دمة.
ولا نية.
يوم الفصل.
ولكن الآية تضيف كلمة أخرى:
﴿مِيقَاتُهُمْ﴾.
موعد.
ليس احتمالاً.
ولا استعارةً نفسية.
ولا فكرةً أخلاقيةً نحتاجها لتستقيم الحياة فحسب.
إنه ميقات.
والميقات له وقت يأتي.
وهذه الكلمة تعالج في القلب وهم التأجيل.
هناك فرق بين شيء لا تعرف متى سيحدث، وبين شيء قد لا يحدث.
الآخرة من الأول لا الثاني.
أنت لا تعرف الميقات.
لكن جهل الوقت ليس جهل الحقيقة.
كما أن الإنسان لا يعرف لحظة موته، لكنه يعرف أنه سيموت.
ومن أعجب غرور النفس أنها تحول جهلها بالموعد إلى إحساس ببعد الموعد.
لا أعرف متى سأموت.
فتصرف وكأن هذا يعني:
لن أموت قريباً.
ولا دليل على ذلك.

لكن الغفلة تصنع يقيناً وهمياً من فراغ.
والقرآن يهدم هذا الوهم بكلمة:

مِيقَاتِهِمْ.

ثم لا يقول:

مِيقَاتِ بَعْضِهِمْ.

بل:

﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فرعون.

وموسى.

قوم تبع.

مشركو مكة.

الملوك.

الفقراء.

الأنبياء.

الجنود.

الأطفال الذين كبروا ثم شاخوا.

والأجيال التي لا نعرف أسماءها.

وأنت.

وأنا.

أجمعين.

يا لها من كلمة تسوي في القلب كل أوهام الاستثناء.

كل واحد منا يعيش تجربته كأنها المركز.

آلامه كبيرة في عينه.

وخططه كبيرة.

وأصدقائه.

وخصوماته.

وطموحاته.

لكن هناك يوم ستجتمع فيه البشرية كلها عند حقيقة واحدة.

كم سيبدو صغيراً يومئذ ما كان يملأ حياتنا!
كم خصومة استهلكت ليالي كاملة وستبدو كأنها غبار.
كم إعجاب سعيناً إليه من بشر سيقفون معنا في الصف نفسه.
كم خفنا من إنسان سيكون يومها محتاجاً إلى الرحمة مثلنا.
وهذا ينقل السورة إلى الآية التالية:
﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾.
الدنيا قائمة على شبكات من العلاقات.

الأب.

الأخ.

الصديق.

الحليف.

الزعيم.

الجماعة.

العشيرة.

الحزب.

الدولة.

المال.

المكانة.

والإنسان يستمد من هذه الروابط شعوراً بالأمان.
أنا لست وحدي.

فلان معي.

جماعتي ستحميني.

اسمي يفتح لي الأبواب.

نفوذي يمنع عني الضرر.

لكن يوم الفصل يجرد الإنسان من كل شبكة توهم أنه يستطيع الاحتماء بها من الله.
﴿لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً﴾.

حتى الذين كنت تستند إليهم يقفون محتاجين مثلك.
ومن كان يمنحك مكانة في الدنيا لا يملك لنفسه يومئذ شيئاً إلا بما أذن الله.

وهذه ليست دعوة إلى قطع العلاقات.
بل إلى تصحيح موقعها في القلب.
أحب الناس.
وأحسن إليهم.
واطلب عونهم فيما يقدرّون عليه.
لكن لا تجعلهم موضع الاتكال الذي لا يكون إلا لله.
فالناس أسباب.
والله رب الأسباب.
وكم يحرر هذا المعنى القلب.
إذا عرفت أن البشر لا يملكون مصيرك، تقل قدرتهم على شراء ضميرك.
لأن جانباً كبيراً من ضعف الإنسان أمام البشر يأتي من المبالغة في تصور ما يملكون له.
هذا يملك رزقي.
وهذا يملك مستقبلي.
وهذا يستطيع أن يدمرني.
لكن المؤمن يعرف أن المخلوق قد يكون سبباً، وليس رباً.
يأخذ حذره.
ويستخدم الحكمة.
لكنه لا يسجد بقلبه للسبب.
لأن يوماً سيأتي لا يغني فيه مولى عن مولى شيئاً.
ثم يقول:
﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾.
انقطعت الجهات.
سقطت التحالفات.
ذهب وهم القوة المستعارة.
وهنا، لو توقفت الآيات، لامتلأ المشهد رهبة خالصة.
لكن سورة الدخان التي بدأت بقول الله:
﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾
تفتح هنا نافذة الرحمة مرة أخرى:

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾.

النجاة في النهاية رحمة.

نعم، هناك عمل.

وإيمان.

وتقوى.

وتوبة.

لكن لا يدخل العبد على الله متباهياً بعمله كأنه دفع ثمن الجنة من عند نفسه.

حتى طاعته نعمة.

وهداه الله إليها.

وثبته عليها.

ثم يقبلها منه.

ثم يثيبه عليها.

فالعبد محاط بالرحمة من أول الطريق إلى آخره.

رحمة أن جاءه الوحي.

ورحمة أن فُتِحَ له باب التوبة.

ورحمة أن هُدي إلى العمل.

ورحمة أن سُرَّ تقصيره.

ورحمة يوم الفصل.

ولهذا لا ينشأ من الإيمان بالآخرة يأس عند من يعرف ربه.

ينشأ خوف.

لكن معه رجاء.

لأن الذي قال:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾

هو نفسه قال:

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾.

ثم تختم الآية باسمين:

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

العزیز.

الرحيم.

وهذا الجمع بديع في مقام الحساب.

عزیز فلا يفلت من حكمه أحد.

رحيم فلا يأس من فضله من أقبل عليه.

عزته تمنعك أن تغتر.

ورحمته تمنعك أن تقنط.

لو عرفت الرحمة وحدها بمعزل عن العزة، ربما أمن القلب أمناً كاذباً.

ولو نظر إلى العزة وحدها بمعزل عن الرحمة، ربما دخل في اليأس.

لكن القرآن يبني القلب بينهما.

تحافه.

وترجوه.

تعرف أنه قادر عليك.

وتعرف أنه أرحم بك من كل من تعرف.

ومن هنا يبدأ المشهد التالي.

بعد أن ثبتت السورة يوم الفصل، لم تعد تتحدث عن الآخرة في صورة مجردة.

ستأخذنا إلى الطعام.

والماء.

واللباس.

والمكان.

والجسد.

حتى تصبح الآخرة قريبة من الحس.

وهنا تظهر شجرة في قلب الجحيم:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّقُومِ ﴿١٠﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾.

لقد انتهى زمن الحديث عن اللعب.

والآن سنرى ماذا أعدَّ اللعب حين يتحول إلى مصير.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾

حين تتحول الشهوة التي قادت الإنسان إلى عذاب قال الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ خَذُوهُ فَاَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

بعد يوم الفصل، تدخل السورة إلى مشهد لا تترك فيه العذاب فكرة بعيدة. هناك شجرة.

وطعام.

وبطن.

وغليان.

وماء حميم.

ورأس يصب فوقه العذاب.

إن القرآن يقرب المشهد إلى الحس حتى لا يبقى الحديث عن الآخرة صوتاً لا يصل إلى أعماق الإنسان.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾.

اختارت النفس في الدنيا أطعمة كثيرة.

ولذات كثيرة.

وشهوات كثيرة.

وكان بعض الناس مستعداً أن يعصي الله من أجل لحظة مذاق.

أو لذة جسد.

أو مال.

أو متعة.

لكن السورة تريد أن تقول إن الجسد نفسه الذي جعلت شهوته سيذاً عليك لن يخرج من الحساب.

البطن الذي طلب الحرام.

واللسان.

والجلد.

والرأس.

كل هذا الجسد الذي استعملته في الاختيار سيشهد أثر الاختيار.

وليس المقصود أن كل لذة مذمومة.

الله هو الذي خلق الطيبات وأباحها.

المشكلة حين تتحول الشهوة من نعمة إلى سيد.

حين تقول لله عملياً:

أريد هذه اللذة ولو نهيتني عنها.

هناك تبدأ العبودية لشيء صغير.

إنها لحظة غريبة:

عبد خلقه الله، ويعرف أن الله رازقه، وأنه سيموت، ثم تكون شهوة عابرة أقوى في قراره

من خبر الآخرة.

ولهذا كانت التقوى تحريراً.

ليست حرباً على الجسد.

بل وضع الجسد في مكانه الصحيح.

أن تستمتع بالحلال.

وتمنع نفسك عن الحرام.

لأنك لا تريد أن تكون شهوتك هي التي تقرر مصيرك.

ثم وصف الطعام:

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۖ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ﴾.

ليس هناك نعيم كاذب الآن.

ولا كأس تخدع العين.

ولا لذة قصيرة تخفي خلفها الندم.

انكشف باطن الطريق.

وهذا من أعظم حقائق الآخرة في القرآن:

الآخرة تُظهر ما كانت الدنيا تخفيه.

في الدنيا قد يبدو الذنب لذيذاً.

لكن القرآن يريك مآله.

وقد يبدو الصبر مؤلماً.
لكن القرآن يريك نهايته.
والإنسان يعيش بين ظاهرين:
ظاهر قريب تراه العين.
وظاهر أخير يخبرك به الوحي.
ومن الحكمة أن تختار على أساس النهاية لا البداية.
فالسّم قد يكون حلو المذاق.
والدواء قد يكون مرّاً.
ولا يحكم العاقل على شيء من أول ثانية فقط.
كذلك الذنب.
لا تقرأه عند لحظة اللذة.
اقرأه إلى آخر الطريق.
وكذلك الطاعة.
لا تقرأها عند ثقل التكليف وحده.
اقرأها عند:
﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.
ثم ينتقل المشهد من الطعام إلى الإهانة:
﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.
الإنسان الذي كان يريد في الدنيا أن يمشي حيث يشاء، يُساق الآن.
والذي كان يرفض الخضوع للحق يُقاد رغماً عنه.
والذي كان يرى نفسه عزيزاً بماله وقوته ومكانته، تأتيه السخرية التي تكشف حقيقة تلك
العزة:
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.
يا لها من كلمة شديدة.
العزيز.
الكريم.
الألفاظ نفسها التي يحب الطغاة أن يسمعوها عن أنفسهم.
لكنها تأتي هنا في مقام التوبيخ.

كأن كل لقب كاذب صنعه الإنسان لنفسه يعود عليه يوم القيامة شاهداً.
 كنت عزيزاً؟
 إذن ادفع عن نفسك.
 كنت كريم المقام؟
 إذن اخرج من العذاب.
 أين الجنود؟
 أين المال؟
 أين الذين كانوا يقومون إذا دخلت؟
 أين الأبواب التي كانت تفتح باسمك؟
 لقد وصلت إلى مكان لا تعمل فيه الأسماء التي صنعها البشر.
 وتلك من أكبر لحظات الحقيقة:
 حين يفصل الإنسان عن صورته الاجتماعية.
 نحن نعيش في الدنيا محاطين بألقاب كثيرة.
 فلان الكبير.
 فلان المشهور.
 فلان صاحب النفوذ.
 فلان الذي يُخشى.
 لكن القبر لا يقرأ بطاقات التعريف.
 ويوم الفصل لا يزن زخرفة الاسم.
 هناك يُسأل القلب والعمل.
 ولهذا فالعاقل لا يبني قيمته على لقب يستطيع الموت أن يحوه في لحظة.
 ابنها على شيء يستطيع أن يعبر معك.
 إيمان.
 صدق.
 تقوى.
 عمل خفي.
 سجدة لم يعلم بها أحد.
 دمة خافتة.

حق أعدته.

حرام تركته لله.

هذه أشياء لا تأكلها المقابر.

ثم يأتي الحكم الذي يربط المشهد بأول المرض:

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

ها هو الشك القديم يعود.

في أول السورة:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

وهنا:

﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

كان شكًا.

فصار مشاهدة.

كانوا ينازعون في الخبر.

فصار أمامهم:

هذا.

إنها كلمة إشارة.

كأن المسافة بين الغيب والحضور اختفت.

هذا الذي كنتم تتجادلون فيه.

هذا الذي كنتم تؤجلون التوبة لأنكم لم تكونوا متأكدين منه كما تزعمون.

هذا الذي كانت آياته تمر عليكم ثم تعودون إلى اللعب.

الآن:

هذا.

وما أشد الفرق بين أن يخبرك الله الآن، وبين أن يقال لك يومئذ:

هذا.

لذلك كان القرآن رحمةً لأنه يمنحك معرفة النهاية وأنت ما تزال قادرًا على تغيير الطريق.

أما يومئذ، فلا يحتاج الإنسان إلى موعظة.

فقد صار الخبر واقعًا.

وهنا، بعد أن تبلغ السورة بالرهبة هذا المبلغ، لا تترك القلب في الجحيم.

تلتفت فجأة إلى المشهد المقابل.

إلى قوم آخرين.

لم يكونوا في شك يلعبون.

أخذوا خبر الله بحمد.

وخافوا يوم الفصل.

ولم يجعلوا لذة الطريق القصيرة أكبر من نهايته.

فتنتقل السورة من:

شجرة الرقوم

إلى:

جنات وعيون.

ومن:

سواء الجحيم

إلى:

مقام أمين.

ومن:

عذاب الحميم

إلى:

فاكهة آمنين.

وهناك ستتكشف واحدة من أجمل مقابلات سورة الدخان:

فرعون ترك مقاماً كريماً في الدنيا.

لكن المتقين يدخلون مقاماً أميناً في الآخرة.

وهنا سيظهر الفرق بين نعيم تملكه قليلاً ثم يتركك...

ونعيم وصلت إليه أخيراً فلا تخاف أن تفقده.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾

حين يصبح الأمان هو النعيم الأكبر

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٣﴾ كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بَحُورَ عِينٍ ﴿٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ ﴿٥﴾ لَا يُذْوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦﴾ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بعد النار...

يفتح القرآن باباً آخر.

وهذه من طرائق الوحي في تربية القلب.

لا يتركه يحدق طويلاً في الهاوية حتى يئأس.

ولا يتركه مسترسلاً في الرجاء حتى يأمن.

يأخذه بين الخوف والرجاء.

بين:

﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾

و:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.

كأن الصفتين موضوعتان أمام الإنسان ليختار.

هناك طريق.

وهناك طريق.

وهذه ليست نهاية عشوائية لا صلة لها بما سبقها.

إنما هي ثمرة المسار.

الأثيم كان له طعام.

والمتقون لهم مقام.

الأول عاش يعبر الحدود.

والآخر عاش يصنع بينه وبين غضب الله وقاية.

وهذا هو أصل معنى التقوى.

ليست خوفاً مضطرباً يجعل الإنسان يهرب من الحياة.
إنها يقظة.

أن تعيش وفي قلبك حاجز من المعرفة بالله يمنعك أن تقتحم ما يسخطه.
أن تستطيع أن تفعل ثم لا تفعل.
لأن الله يراك.

أن تُفتح لك شهوة ثم تغلق الباب.
لا لأنك عاجز عنها، بل لأن في قلبك شيئاً أعظم منها.
أن يمكنك أن تظلم، ثم تذكروم الفصل.
أن يمكنك أن تكذب، ثم تذكروم السميع العليم.
أن يمكنك أن تتكبر، ثم تسمع في داخلك:
﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾.

هؤلاء هم الذين تصل بهم السورة الآن إلى:
﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.

تأمل أنها لم تقل أولاً:
في لذة.

ولا:

في ذهب.

ولا:

في قصور.

قالت:

أمين.

وكان الأمان نفسه صار نعمة الجنة الكبرى.
فالإنسان في الدنيا مهما اتسع نعيمه يحمل داخله خوف الفقد.
تملك المال.

فتخاف خسارته.

تحب إنساناً.

فتخاف موته.

تسكن بيتاً.

فتخاف أن تخرجه الأيام منك.

تملك الصحة.

فتعرف أنها قابلة للانكسار.

تفرح.

وفي طرف الفرح يقف احتمال الحزن.

كل نعم أرضي يحمل داخله شيئاً يهدده.

حتى أجمل لحظة في الدنيا لا تستطيع أن تقول لها:

ابقي.

فالزمن يعمل داخلها.

أما الجنة فنعيمها لا يفسده توقع النهاية.

ولهذا كان:

﴿مَقَامٌ أَمِينٌ﴾.

أمان من الخروج.

أمان من الزوال.

أمان من الخوف.

أمان من الموت.

أمان من انقلاب النعمة إلى حزن.

وما قيمة النعيم إن كنت ترتجف من فقده؟

وما قيمة الملك إن كان الموت واقعاً عند بابه؟

هنا نعود إلى فرعون.

لقد قالت السورة عنه وعن قومه:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٠﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾.

والآن تقول:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿١٠١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

ما أبدع هذا البناء.

جنان وعيون هناك.

وجنان وعيون هنا.

مقام كريم هناك.

ومقام أمين هنا.
لكن ما أبعد ما بين العالمين.
فرعون كان في مقام كريم لا يملك بقاءه.
والمتقون في مقام أمين لا يخافون زواله.
أولئك:
تركوا.
وهؤلاء:
مقيمون.
أولئك ملكوا النعمة زمناً.
وهؤلاء وصلوا إلى النعمة التي لا تتقلب عليهم.
كأن السورة تقول:
لا نخدعك الأسماء المتشابهة.
ليست كل جنة جنة.
وليست كل عين عيناً.
وليست كل كرامة كرامة.
قد يكون لك من صورة النعيم ما يهر الناس، لكنه في ميزان المصير محطة قصيرة قبل فراق مؤلم.
فالسؤال ليس:
كم تملك؟
بل:
هل ما تملكه يستطيع أن يبقى لك؟
وهذا السؤال وحده يجعل الدنيا كلها صغيرة أمام الآخرة.
من المقام الكريم إلى المقام الأمين
ثمة فرق دقيق بين الكريم والأمين في سياق السورة.
المقام الكريم وصف نعمة عظيمة كانت لقوم فرعون.
لكن الكرم الظاهر لم يمنع الرحيل.
أما المقام الأمين فالأمان جزء من ماهيته.
لا توجد يد ستنتزعه منهم.

ولا جيش سيقتم عليهم نعيمهم.
ولا مرض سيغير أجسادهم.
ولا خبر مفاجئ سيحول ضحكاتهم إلى بكاء.
ولا قبر ينتظر نهاية المجلس.
الأمان الذي بحث عنه الإنسان في الدنيا ولم يجده كاملاً...
يجده هناك.
وكم تعب الإنسان في البحث عن الأمان هنا.
يبني جداراً.
فيكتشف أن المرض يعبر الجدار.
يجمع مالا.
فيكتشف أن الموت لا يقبل الرشوة.
يضع حول نفسه علاقات.
فيكتشف أن بعض الفقد لا يستطيع أحد أن يمنعه.
يطلب السيطرة على كل شيء.
ثم تأتية الحياة من زاوية لم يحتسبها.
وكان الدنيا تقول له باستمرار:
لست في المقام الأمين بعد.
هنا دار عبور.
هناك دار قرار.
وهذا لا يعني أن يعيش المؤمن قلقاً كارهاً للدنيا.
بل أن يتعامل معها بالحجم الذي أعطاه الله لها.
يبني.
ويحب.
ويعمل.
ويزرع.
ويفرح بالحلال.
لكن لا يطلب من الدنيا ما لم تخلق لتعطيه:
الأمان المطلق.

فمن طلب الخلود من الفاني أتعب نفسه.
ومن طلب المقام الأمين في دار الرحيل سيبتى خائفًا مهما جمع.
ثم يقول سبحانه:
﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.
لقد عاد الماء.
وعادت الخضره.

لكن هذه المرة لم تعدا جزءًا من ملك طاغية سيغرق.
بل جزءًا من ضيافة الله لعباده المتقين.
وهنا يتغير معنى الأشياء بتغير المآل.
في الدنيا قد تكون الجنة فتنة.
وفي الآخرة تكون جزاءً.
في الدنيا قد يملكها فرعون.
وفي الآخرة لا يدخلها إلا من رحم الله.
لهذا لا يكون جمال الشيء في ذاته وحده هو الميزان.
المهم:

من أين جاء؟
وفيم استعمل؟
وإلى أين يقود؟
﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: نعيمٌ لا عزلة فيه
ثم يقول:
﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.
اللباس جميل.
لكن ثمة كلمة أخرى في المشهد تحمل جمالاً إنسانياً خاصاً:
﴿مُتَقَابِلِينَ﴾.
لبسوا مديرين عن بعضهم.
ولا متخاصمين.
ولا يحمل أحدهم في صدره خوفاً من الآخر.
جلسة بلا غدر.

وقرب بلا ألم.
 واجتماع لا يخشى أصحابه أن يقطعه الموت.
 وهنا نفهم أن الجنة ليست نعيم الأشياء وحدها.
 إنها أيضاً سلام العلاقات.
 كم أفسدت الحصومات من جمال الدنيا.
 قد تجلس في مكان فاخر، لكن قلبك مثقل بإنسان أمامك.
 وقد يملك الناس الموائد، لكن بينهم حسد يجعل الطعام بلا مذاق.
 وقد تجتمع الأسرة في بيت واحد، وتكون القلوب متباعدة.
 أما هناك:
 متقابلين.
 كأن الوجوه نفسها في أمان.
 لا خوف من كلمة جارحة.
 ولا ذكرى خيانة.
 ولا تنافس على مقام.
 ولا قلق من غد.
 إن كثيراً من ألم الدنيا ليس بسبب قلة الأشياء.
 بل بسبب اضطراب القلوب.
 وفي الجنة يصلح الله العالم الخارجي والداخلي معاً.
 نعيم حولك.
 وسلام فيك.
 وسلام بينك وبين من حولك.
 ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمْنِينَ﴾
 ثم تأتي اللذة.
 لكن حتى اللذة يلازمها وصف الأمان:
 ﴿أَمْنِينَ﴾.
 كأن السورة لا تريد أن تترك هذه الكلمة.
 مقام أمين.
 فاكهة آمنين.

والسبب عميق.
فالإنسان في الدنيا قد يستمتع وهو خائف من نتيجة استمتاعه.
يأكل فيخشى المرض.
يملك فيخشى الفقد.
يفرح فيخشى الحسد أو الزوال.
أما في الجنة فلا ثمن خفياً وراء اللذة.
لا ألم بعدها.
ولا ندم.
ولا نقصان.
ولا إثم.
ولا فراق.
والإنسان لا يعرف في الدنيا لذة من هذا النوع على الكمال.
كل لذة هنا محدودة.
إما بزمان.
أو بالجسد.
أو بالمقدار.
أو بالخوف من انتهائها.
أما هناك فاللذة متصالحة مع الأبد.
﴿يَكُلُّ فَاكِهَةً آمِنِينَ﴾.
لا يخافون أن ينفد الرزق.
ولا أن يعقب الطعام وجع.
ولا أن تنتهي الوليمة بموت أحد الجالسين.
وهنا تصل السورة إلى الجرح الأكبر الذي كان يهدد كل نعيم أرضي.
الموت.
فتقول:
﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾.
يا لها من جملة.
الموت الذي كان يلاحق الإنسان منذ بداية وعيه...

انتهى.

الموتة الأولى أصبحت وراءهم.

لم تعد أمامهم.

هذه وحدها جنة.

أن تستيقظ ولا يوجد في الأفق موت.

أن تحب ولا تخشى فراقاً بالموت.

أن تفرح ولا يعد الزمن عليك الأنفاس.

أن تعرف أن «النهاية» خرجت من قاموس حياتك.

في الدنيا كل إنسان يمشي والموت أمامه.

أما في الجنة فقد صار الموت ذكرى بعيدة خلفه.

وهذا يغير طبيعة الوجود كله.

كل شيء في الدنيا مؤلم بدرجة ما لأن الموت يهدده.

أما حين يزول الموت، تكتمل الطمأنينة.

وهنا نعود إلى قول المكذبين:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾.

كانوا يقولون:

ليس بعدها شيء.

نجاة السورة في آخرها لتقول عن أهل الجنة:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾.

نعم، هناك مorte أولى.

لكنها ليست النهاية.

إنها الموتة التي يعبرون بعدها إلى الحياة التي لا موت فيها.

فالذين أنكروا البعث رأوا الموت جداراً.

والمؤمن رآه باباً.

الأول قال:

هنا تنتهي القصة.

والثاني صدق الله أن وراء الجدار عالماً أوسع من كل ما رآه.

النجاة ليست الجنة وحدها

ثم يقول سبحانه:

﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

قبل أن تتأمل ما أعطاهم، تأمل مما نجاهم.

فالجنة نعمة.

لكن الوقاية من النار نعمة أخرى لا يدرك حجمها إلا من يعرف ما سبق وصفه من الزقوم والنجيم والحجيم.

والإنسان كثيراً ما يفكر في النعم بوصفها أشياء أضيفت إليه.

مال.

صحة.

أهل.

نجاح.

لكن هناك نِعَم لا نراها لأنها أخذت صورة ما لم يحدث.

بلاء صرف.

مصيبة لم تقع.

فتنة لم تدخل قلبك.

ذنب هيا الله لك سبباً فتركته.

حادث لم تعلم أنك كنت قريباً منه.

باب شر أغلقه الله قبل أن تعرف أنه كان مفتوحاً.

الوقاية نعمة.

وفي الآخرة تبلغ ذروتها:

﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

ولعل أهل الجنة حين ينظرون إلى نعيمهم لا يرون فقط ما أعطوا.

بل يعرفون كذلك مما نجوا.

وهنا يتضاعف الشكر.

﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ﴾

ثم، بعد التقوى.

وبعد الصبر.

وبعد الطاعة.

وبعد اجتناب ما يغضب الله.

تأتي كلمة تهدم كل عجب:

﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ﴾.

فضلاً.

لا يدخل المؤمن الجنة واقفاً أمام الله كدائن يحمل فاتورة أعماله.

لا يقول:

صليت، فأعطني.

صمت، فأعطني.

تركت الحرام، فأعطني.

بل يعرف أن الطاعة نفسها كانت من فضل الله.

من الذي هداك؟

من الذي أيقظ قلبك؟

كم مرّة على الآية نفسها إنسان فلم تؤثر فيه، وأثرت فيك؟

من الذي ستر عليك حتى تبت؟

ومن الذي أعانك على التوبة؟

ومن الذي ثبتك حين ضعفت؟

ومن الذي قبل العمل على نقصه؟

الله.

ثم يعطيك فوق ذلك ما لا يقدر عملك المحدود على أن يساويه:

خلوداً لا ينتهي.

أي عمل محدود يستطيع أن يشتري الأبد؟

لا شيء..

إنها:

﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ﴾.

وهذه الكلمة تحمي الطاعة من أن تتحول إلى فرعونية دينية.

فقد يترك الإنسان فرعون السلطة ثم يصنع فرعوناً من عبادته.

يرى نفسه.

ويعجب.

ويحتقر المقصرين.
ويظن أنه وصل بقوته.
لكن المؤمن كلما اقترب من الله ازداد علماً بفقره إليه.
يعمل.
ولا يتكل على العمل.
ويحسن.
ولا يعجب بالإحسان.
ويرجو.
ولا يدلي على الله.
فهو بين جهد العبد...
وفضل الرب.
ولهذا كان ختام المشهد:
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.
هنا فقط تعيد السورة تعريف الفوز.
ليس أن يغلب فرعون موسى في لحظة.
ولا أن يملك الجنات والعيون.
ولا أن يكون له مقام كريم.
ولا أن يسير خلفه الجند.
كل ذلك مضى.
الفوز العظيم أن تصل إلى مقام أمين.
أن تُوقى الجحيم.
أن ينتهي الموت.
أن تدخل في فضل الله.
هذه هي النتيجة التي ينبغي أن تُقاس بها الحياة.
فمن ربح الدنيا وخسر هذا...
ماذا ربح؟
ومن خسر شيئاً من الدنيا وربح هذا...
ماذا خسر؟

﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

حين يعود الكتاب في ختام الرحلة

قال الله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٠﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾.

بعد الدخان.

وبعد موسى.

وبعد فرعون.

وبعد البحر.

وبعد القصور الفارغة.

وبعد إنكار البعث.

وبعد يوم الفصل.

وبعد الزقوم.

وبعد المقام الأمين.

تعود السورة إلى القرآن.

وهذا من أجمل ما في بنائها.

لقد بدأت:

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

وتنتهي:

﴿فَإِنَّمَا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

كأن الرحلة كلها بين كتاب في البداية وذكرى في النهاية.

القرآن هو الذي حملنا عبر هذه المشاهد.

هو الذي فتح الغيب.

وهو الذي قرأ التاريخ.

وهو الذي كشف المصير.

ثم بعد أن أراك كل ذلك يقول:

لقد يسرناه لك.

فماذا بعد البيان؟

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

لم يقل:

لعلهم ينبهرون.

ولا:

لعلهم يتذوقون بلاغته.

ولا:

لعلهم يتخذونه جزءاً من تراثهم.

بل:

يتذكرون.

وهنا نفهم وظيفة القرآن في القلب.

إن الإنسان كثير النسيان.

يعرف أنه سيموت.

ثم ينسى.

يعرف أن الرزق من الله.

ثم ينسى عند أول باب يغلقه بشر.

يعرف أن الدنيا تزول.

ثم يدخل معركة صغيرة من أجلها كأنه سيخلد.

يعرف أن الله يراه.

ثم تأتي شهوة فتغطي المعرفة.

فلا يحتاج دائماً إلى معلومة جديدة.

يحتاج إلى أن يتذكر ما عرفه حتى يعود له سلطانه على القلب.

ولهذا كان القرآن ذكراً.

ليس لأنه يقدم حقائق مجهولة فقط.

بل لأنه يعيد الحقائق الكبرى إلى مركز الوعي كلما دفعها الدنيا إلى الهامش.

وما أكثر ما تدفع الدنيا الآخرة إلى الهامش.

يستيقظ الإنسان.

هاتف.

عمل.

أخبار.

رسائل.

رزق.

مشكلة.

موعد.

خصومة.

شراء.

بيع.

حديث.

ثم ينام.

وقد مر يوم كامل دون أن يقف مرة واحدة أمام السؤال:

إلى أين أنا ذاهب؟

وهنا يأتي القرآن.

لا يعطلك عن الحياة.

بل لينع الحياة من أن تسرق منك معناها.

يقول:

تذكر.

هذا ربك.

وهذا أجلك.

وهذا تاريخ من كان قبلك.

وهذه عاقبة اللعب.

وهذا يوم الفصل.

وهذا الجحيم.

وهذا المقام الأمين.

ثم عدْ إلى يومك.

لكن عدْ إليه بعيون أخرى.

فمن تذكر الآخرة لم يترك الدنيا.

بل دخل إليها بحجمها الصحيح.

التيسير الذي يقيم الحجة
 ﴿فَإِنَّمَا يَسِّرُنَا لِبَلْسَانِكَ﴾ .
 القرآن نزل بلغة يفهمها المخاطبون.
 ليس لغزاً أرسل ليعجز الناس عن فهم أصل هدايته.
 هناك عمق لا ينتهي.
 ودقائق تتسع فيها علوم العلماء.
 لكن باب التذكر مفتوح.
 تعرف من أنت.
 ومن ربك.
 ولماذا أرسلت الرسل.
 وأن الموت ليس النهاية.
 وأن للظلم حساباً.
 وأن المتقين إلى نعيم.
 وأن المجرمين إلى عاقبة.
 الطريق الكبير واضح.
 ولهذا فإن أخطر شيء أن يكون البيان قريباً والقلب بعيداً.
 أن يكون القرآن على الرف.
 لكن ميزانك مأخوذاً من غيره.
 أن تحفظ الآيات.
 لكن تختار في المواقف كأنك لم تحفظ شيئاً.
 أن تعرف وصف فرعون.
 ثم تمارس بعض منطقته في مساحة السلطة الصغيرة التي بين يديك.
 أن تقرأ:
 ﴿لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾
 ثم لا تستطيع أن تراجع أمام الحق لأن ذاتك تأبى.
 أن تقرأ:
 ﴿كَمْ تَرَكُوا﴾
 ثم تجمع وكأنك لن تترك.

أن تقرأ:

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾

ثم تجعل رضا البشر هو المحكمة الأخيرة.

القرآن لا يريد أن يبقى معلومةً في الرأس.

يريد أن يصبح ميزاناً.

وكل مرة لا يغير فيها القرآن شيئاً من رؤيتك إلى الحياة، ينبغي أن تسأل:

هل قرأته أنا؟

أم مرّ لساني على ألفاظه فقط؟

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾

حين تنتهي السورة عند باب الانتظار
ثم تأتي الكلمة الأخيرة.

نفس الكلمة التي ظهرت عند الدخان:
﴿فَارْتَقِبْ﴾.

في أولها:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

وفي آخرها:

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾.

كأن السورة محاطة بالانتظار.

لكن ليست كل الجهات تنتظر الشيء نفسه.

النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر حكم الله.

والمكذبون ينتظرون ما سيحدث بالرسالة وصاحبها.

كل فريق يرتقب.

لكن أحدهما يرتقب وهو يحمل وعد الله.

والآخر يرتقب وهو واقف ضد ذلك الوعد.

وهذا يجعل الانتظار نفسه موقفاً عقدياً.

هناك انتظار المؤمن.

وانتظار المكذب.

المؤمن قد لا يعرف متى يأتي الفرج.

لكنه يعرف من يديره.

وقد لا يعرف كيف تنتهي معركة الحق.

لكنه يعرف أن الكون لم يخلق لعباً.

وأن يوم الفصل ميقات الجميع.

وأن فرعون، مع كل ما كان يملك، لم يكتب النهاية.

ومن هنا يصبح:

﴿فَارْتَقِبْ﴾

كلمة تربية قبل أن تكون كلمة وعيد.

لا تستعجل.

لا تجعل تأخر النتيجة يزعزع حقيقة الطريق.

لا تقرأ وعد الله بعمر لحظة من عمرك.

إن التاريخ أطول من نافذتك.

والتدبير أوسع من فهمك.

ورب السماوات والأرض لا يحتاج أن يشرح لك كل خطوة حتى يكون تدبيره حكيماً.

مهمتك أن تعرف موضعك.

ثم تثبت.

وهذه من أصعب العبادات:

أن تبقى على الحق في زمن لا ترى فيه النتيجة بعد.

أن تصدق والناس يشكون.

أن تكون جاداً والناس يلعبون.

أن تمشي خلف الوحي حين يتقدم غيرك خلف القوة.

أن تعرف أن البحر قد يفتح دون أن تعرف متى.

أن ترى فرعون في قمة سلطانه ولا تنسى أنه عبد يجري عليه الأجل.

أن ترى الجنات في يد الظالم ولا تحسبها شهادة نجاة.

أن ترى المؤمن محروماً من بعض الدنيا ولا تظن أن الحرمان هو خاتمة قصته.

فارتقب.

هناك فصل آخر لا تراه الآن.

من الشك إلى الارتقاب

ولو أردنا أن نرى حركة سورة الدخان كلها من أعلى، لوجدنا أنها تنقل الإنسان عبر سلسلة

عجيبة من التحولات.

تبدأ بالكتاب:

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

ثم بالإيزال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾.

ثم بالربوبية:

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

ثم تكشف المرض:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

ثم يأتي الإنذار:

﴿فَارْتَقِبْ﴾.

ثم تعرض التاريخ:

فرعون.

وموسى.

والطغيان.

والنجاة.

والبحر.

ثم تعرض زوال الملك:

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾.

ثم تعود إلى أصل الاعتراض:

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾.

ثم تضع الوجود كله في ميزان الحق:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.

ثم تكشف الميقات:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم تعرض الطريقين:

الزقوم.

والمقام الأمين.

ثم تعود إلى القرآن:

﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا لِبِسَانِكَ﴾.

ثم تختتم:

﴿فَارْتَقِبْ﴾.

إنها سورة تأخذك من البيان إلى الانتظار.

لكن ما بينهما هو عملية بناء كاملة للوعي.

تقول لك:

إذا عرفت أن الكلاب مبین، فلا تعش في شك.
وإذا عرفت أن ربك رب السماوات والأرض، فلا تجعل مخلوقاً أكبر منه في قلبك.
وإذا عرفت أن الله يحيي ويميت، فلا تنصرف كأن العمر ملكك.
وإذا عرفت أن فرعون غرق، فلا تنهر بقوة طاغية.
وإذا عرفت أنهم تركوا الجنات، فلا تسلم قلبك لما ستترك.
وإذا عرفت أن الكون لم يخلق لعباً، فلا تحول حياتك إلى لعب.
وإذا عرفت أن يوم الفصل ميقات الجميع، فلا تجعل الحكم الأخير للبشر.
وإذا عرفت أن هناك زقوماً، فلا تجعل لحظة شهوة تهدم مصيرك.
وإذا عرفت أن هناك مقاماً أميناً، فلا تبع الأبد من أجل ساعة.
وإذا عرفت أن القرآن يذكرك، فلا تهجر الشيء الذي يعيد إليك ذاكرتك الحقيقية.
ثم:
ارتقب.

سورة الدخان: حين يُنزع الإنسان من لعبة العاجل إلى جدِّ الأبد
لعل أعظم ما تفعله سورة الدخان في الإنسان أنها تسأله سؤالاً لا يستطيع الفرار منه طويلاً:
هل تعيش الحياة على قدر حقيقتها؟
ليست المشكلة أن الإنسان يضحك.
ولا أن يستمتع.
ولا أن يبني.
ولا أن يطلب الرزق.
ولا أن يحب الدنيا بمعنى الفطرة التي جعلها الله فيه.
المشكلة أن تصبح الدنيا كلَّ الحقيقة.
أن يصغر الأبد حتى يختفي خلف يومك.
وأن يكبر العاجل حتى يملأ الأفق كله.
أن يصبح المال أكثر واقعية في قلبك من الحساب.
والناس أكثر حضوراً في ضميرك من الله.
والفقد الأرضي أكبر خوفاً من الخسارة الأخروية.
هنا يبدأ اللعب.
ولذلك لم تقل السورة:
هم لا يعرفون شيئاً.
بل قالت:
﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.
هناك وحي.
وهناك كون.
وهناك موت.
وهناك تاريخ.
لكن الإنسان يستطيع، مع كل ذلك، أن يبني لنفسه عالماً صغيراً يختفي فيه من السؤال.
تأتي السورة فتفتح سقف ذلك العالم.
ترينا السماء.
ثم ترينا الدخان.

ترينا الليل.
ثم ترينا التنزيل.
ترينا القصر.
ثم القصر فارغاً.
ترينا الطاغية.
ثم البحر فوقه.
ترينا النعمة.
ثم أصحابها قد تركوها.
ترينا الموت.
ثم نخبرنا أنه ليس النهاية.
ترينا النار.
ثم الجنة.
ثم تقول لنا:
والآن وقد رأيتم...
تذكروا.
إنها سورة تسترد الإنسان من خفة اللحظة.
تجعله ثقيلاً بالمعنى.
لا ثقل الروح.
بل يعرف وزن الأشياء.
السماء التي نزل منها الكتاب
في أول السورة شيء بالغ الجمال.
القرآن نزل من عند الله رحمةً وبياناً.
وقبل أن يرى الإنسان يوماً تأتي السماء فيه بالدخان، أعطي فرصة أن يرى منها النور.
وهذه من رحمة الله العظمى.
سبق الكتابُ العذاب.
وسبق الرسولُ العقوبة.
وسبقت الذكرى الحساب.
كل صفحة قرآن تقرأها اليوم هي دليل أنك ما زلت في زمن تستطيع فيه أن تختار.

هذه الجملة وحدها ينبغي أن تغير طريقة تعاملنا مع الوحي.
حين تقرأ آية وعيد، لا تقل فقط:
هذه تخيفني.

قل:

هذه وصلتني قبل فوات الأوان.
وحين تسمع عن النار، احمده الله أنك تسمع عنها ولا تراها.
وحين تقرأ مصير فرعون، احمده الله أنك تقرؤه قصةً يمكن أن نتعظ بها، لا مصيراً وقعت فيه.

القرآن يخبرك بالمستقبل كي تغير الحاضر.
وهذه هي الرحمة.

فرعون الذي لم يملك البحر
ومن أعظم مشاهد السورة ذلك الطاغية الذي كان يملك من الأسباب ما يجعل الناس
يظنون أن الكلمة الأخيرة له.

لكن البحر كشف الوهم.
فرعون كان يملك جنداً.
ولم يملك الماء.

يملك أمر الجنود.

ولا يملك أمر البحر.

يملك أن يتبع موسى.

ولا يملك أن يضمن العودة.

وهنا ينبغي للمؤمن أن يتعلم كيف ينظر إلى القوة.
لا ينكرها.

ولا يستهين بها.

لكن لا يؤلّهاها.

يحسب حسابها.

لكن لا ينسى ربها.

فكم من شيء بدا للناس ثابتاً ثم تغير في لحظة.
وكم من باب ظنوه مغلقاً ففتحه الله.

وكم من باب ظن الظالم أنه باب نصره فإذا هو باب هلاكه.
البحر نفسه كان لموسى طريقاً.
ولفرعون قبراً.

وهكذا يكون الشيء الواحد تحت تدبير الله حاملاً لمصيرين مختلفين.
فلا تُفتن بالأسباب حتى تنسى المسبب.
﴿كَمْ تَرَكُوا﴾: الكلمة التي تختصر الدنيا
ولو كان في السورة كلمة واحدة تصلح أن تكتب أمام أعيننا ونحن نجمع، فهي:
تركوا.

لا لأنها تدعو إلى ترك الدنيا.
بل لأنها تمنع الدنيا أن تتخدعنا.
كل شيء بين يديك سيقع في واحد من احتمالين:
إما أن يتركك.
أو تتركه.

لا يوجد احتمال ثالث للمتاع الأرضي.
الصحة تترك.
الشباب يترك.
المال قد يترك.
الأحبة قد يتركون.
وإن بقي كل ذلك إلى النهاية، فأنت الذي ستترك.
ولهذا كان العاقل من جعل الأشياء في يده، ولم يجعل قلبه رهينة لها.
يستعملها في الطريق.

ولا يبني عليها معنى البقاء..
الكون ليس ملعباً
ثم تأتي الآية التي تكاد تكون قلب السورة الفكري:
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾.
إذا لم يكن الله قد خلق هذا العالم لعباً...

فكيف يعيش الإنسان فيه لاعباً؟
إنها مفارقة ضخمة.

كون كله قائم بالحكمة.
 ثم كائن صغير فيه يقرر أن لا غاية وراء وجوده إلا أن يجمع أكثر، ويشتهي أكثر، ويظهر
 أكثر، ثم يموت.
 إن القرآن ينتشل الإنسان من هذه الضلالة.
 يقول له:
 أنت مخلوق لقصة أكبر.
 لعبادة.
 وأمانة.
 وامتحان.
 ثم لقاء.
 لا تهدر كرامة وجودك بتحويله إلى سلسلة من الشهوات المتلاحقة.
 لقد أعطاك الله أكثر من جسد يأكل.
 أعطاك قلباً يعرفه.
 وعقلاً يهتدي.
 وروحاً تنوق إلى ما وراء التراب.
 الموتة الأولى فقط
 ثم تأتي الجنة لتصصح أقدم خوف في الإنسان.
 الموت.
 هناك يقول الله:
 ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾.
 كانت موتة.
 واحدة.
 ثم انتهى سلطان الموت.
 ما أعظم هذه البشرية لمن عاش عمره يرى أحبته يرحلون.
 لمن وقف عند قبر.
 لمن عرف ألم الفقد.
 لمن سأل نفسه:
 هل كل لقاء جميل مكتوب عليه أن ينتهي؟

في الدنيا نعم.
أما هناك، فهناك نوع آخر من الاجتماع.
لا يقطعه جنازة.
ولا تفسده ساعة وداع.
وحين يستقر هذا في القلب، يتغير معنى الفقد الأرضي.
لا يزول الألم.
لكن يدخل إليه الرجاء.
والمؤمن لا يصبح حجراً أمام الموت.
يحزن.
وتدمع عينه.
لكن خلف الدمع نافذة.
يعرف أن الموتة الأولى ليست كل الحكاية.
الفوز الذي يستحق أن يسمى فوزاً
كل عصر يصنع تعريفاته للفوز.
ثراء.
شهرة.
سلطة.
نفوذ.
انتصار.
لكن سورة الدخان مرّت على رجل جمع نماذج كثيرة من ذلك.
فرعون.
ثم أين انتهى؟
أما حين وصلت إلى المتقين قالت:
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.
كأنها تسحب الكلمة من أسواق الدنيا وتعيدها إلى موضعها.
هذا هو الفوز.
أن تنجو.
أن يُرحم قلبك.

أن يُوقى جسدك النار.

أن تدخل مقاماً أميناً.

أن ينتهي الموت.

أن تكون في فضل ربك.

وكل فوز لا يعبر معك إلى هناك...

فهو فوز صغير مهما صفق له الناس.

النداء الأخير

يا من يقرأ سورة الدخان...

لا تنتظر الدخان حتى تصدق الكتاب المبين.

ولا تنتظر البحر حتى تعرف أن فرعون ضعيف.

ولا تنتظر أن تصبح مملكتك ميراثاً حتى تعرف أنك ستتركها.

ولا تنتظر يوم الفصل حتى تتصف من ظلمت.

ولا تنتظر الزقوم حتى تتعلم أن للشهوة نهاية.

ولا تنتظر المقام الأمين حتى تعرف أن الدنيا ليست دار أمان.

ولا تنتظر الموت حتى تسأل لماذا عشت.

لقد جاءك القرآن قبل ذلك كله.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ لِّلسَّانِكِ لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

فاذكر الآن.

وتب الآن.

وأعد الأشياء إلى أحجامها الآن.

وانظر إلى الدنيا بعين من يعرف أنه سيمر منها ولا يقيم.

ثم امش.

ولا يغرنك ضجيج من حولك.

ولا كثرة اللاعبين.

ولا طول الطريق.

فالسورة التي بدأت بكتاب نزل في ليلة مباركة، وانفتحت على الدخان والبحر والجحيم

والجنة، تضع في يدك عند النهاية كلمة واحدة تكفي قلباً واثقاً:

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ﴾.

ارتقب...

لكن لا ارتقاب العاجز الذي لا يدري إلى أين تمضي الأشياء.
بل ارتقاب من عرف أن رب السماوات والأرض هو الذي يمسك النهاية.
ارتقب وأنت تعمل.

ارتقب وأنت تتقي.

ارتقب وأنت تعود إلى الكتاب المبين كلما غشيت قلبك أدخنة الدنيا.

ارتقب وأنت تعلم أن فرعون مهما علا فله بحر.

وأن النعمة مهما عظمت فلها لحظة تُترك.

وأن الموت مهما أخاف فليس إلا الموتة الأولى.

وأن وراء كل هذا...

مقاماً أميناً.

وهكذا تنتهي سورة الدخان كما ينبغي أن تنتهي سورة جاءت لتوقظ الإنسان من اللعب:

لا تقول له إن العالم قد انتهى.

بل تقول له:

انتظر.

فالفصل الأخير لم يقع بعد.